يوسف زيدان

فوات الحيوات

قصص قصيرات

دار الشروق

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من موقع بستان الكتب

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فوات الحيوات

يوسف زيدان

الطبعة الأولى ٢٠١٧
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٩
الطبعة الثانية ٢٠٢٠

تصنيف الكتاب: أدب / قصص قصيرات

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٩٩١٨/ ٢٠١٩
ISBN 978-977-09-3585-9

تصميم الغلاف : هاني صالح

زيدان، يوسف،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٩
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٨٥٩
١- قصص عربية
أ. العنوان

فوات الحيوات / يوسف زيدان
٢٠٠ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ١٩٩١٨/ ٢٠١٩

٨١٣

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يوسف زيدان

فوات الحيوات

قصص قصيرات

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المحتويات

المجموعة الأولى: صَدى ناقوسٍ صدِئ ٧
رحيلُ الحمير ٩
حيوةٌ أخرى ٢٣
عنّين، بكسر العين ٤٠
المجموعة الثانية: فضلُ السراب ٥٣
هجيرُ الهجرة ٥٥
وَهجُ السنابل ٦١
واجبٌ مفروض ٦٩
ثُريا ٧٩
وَجْدُ الجلّاد ٨٨
المجموعة الثالثة: قصارُ الأقاصيص ١٠١
المجموعة الرابعة: الحكمةُ المؤنَّثة ١٢٥
ترانيمُ «إِسَّتْ» المسماة التباسًا إيزيس ١٢٧
«هيباتيا» الفاضلةُ، الفاصلةُ بين عصرين ١٣٦
هَرَجُ الدُّهُور، بعد تَقْدِيسِ «سيرابيس» وتدنيس «حتحور» ١٤٦
استعادةُ الفَجْرِ الفائِت بذكْرِ جلال الرَّبَّةِ ماعت ١٥٤
اللاهوت والناسوت في سيرة حتشبسوت ١٦٥
اغترابُ تي، وغُربةُ نفرتيتي ١٧٥
الاختيارُ الأخطرُ: هَيَمَانُ كليوباترا، أم هَيْمَنَةُ العسكر؟ ١٨٣

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المجموعة الأولى

صَدى ناقوسٍ صدِئ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ رحيلُ الحمير ◊

نسماتُ آخر الليل الحانيةُ تمسُّ برفقٍ ما تلمسه من الرءوس والسيقان والآذان، فتزيل عن جلود القادمين بعضًا من وعثاء الطريق ومشاق السفر المُسفر عن احتدام المحنة. لكن النسمات، ولسعة البرد اللطيفة، والأنس بالصحبة؛ لا تقوى على محو ما يعتمل بالقلوب من قلقٍ، ومن ترقُّب.. منذ منتصف الليلة السابقة، يفدون فُرادى وجماعات إلى هذه المنطقة المسماة «الشريط البرزخي»، يأتون منهكين من الأنحاء النائية والوسطى والدانية، بل من كل زاويةٍ من زوايا هذا البلد المسمى «البلد» اشتقاقًا من البلادة التي بها يمتاز سكانه، ويتفاخرون.

الناس الذين يسكنون البلد، لديهم خرافاتٌ كثيرة وتوهُّمات، أكثرها تخريفًا وخَرَقًا؛ اعتقادُهم بخطورة الاقتراب من منطقة «الشريط البرزخي» الشاسعة، الواقعة في آخر الجهة الغربية للعمران. وقد سُميّت بالبرزخ، لأنها الفاصل بين الحقول الخضراء والصحراء.. بدأتِ التخاريفُ على يد شيخٍ فانٍ كخِرَقٍ باليات، أقنعهم قديمًا بأن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الجن تسكن هذه المنطقة وتعيث فيها رُعبًا، فاعتقدوا مقولته هذه ثقةً فيه.

وقد شرح لهم هذا الشيخُ الخَرِف اعتقادهم، في كتابٍ متداولٍ عنوانه «الشرح» أكّد فيه وجود ثلاث طوائف من الجن مستقرّة بالشريط البرزخي منذ قديم الأزل، وسوف تسكن هناك حتى ينتهي الزمان. ولكن الكتاب الشارح لم يحدّد ألوانهم. فلما كثرت على «الشرح» الشروحُ والحواشي والتعليقاتُ، وتوالت عليه الاجتهادات وتتالت جيلًا من بعد جيل، اتضحت عدةُ أمورٍ يرقى إليها الشكُّ، لكن سكان «البلد» لم يشكّوا فيها قط. ولن يفعلوا أبدًا. فمن تلك الأمور، إيمانهم بأن طوائف الجنّ الثلاث الساكنة في تلك المنطقة الخطرة، هي: الجنُّ الأحمر، والجنُّ الأزرق، والجنُّ الشفّاف. وهذه الطائفة الشفّافة هي الأخطر لأنها بلا لونٍ أو قوام ملموس، وكلُّ مَن يقترب من المنطقة البرزخية سوف يحسُّ أنها تُحدّق فيه، فيصير من فوره ملبوسًا بها. ولا أمل لديه في النجاة من مصيره المحتوم.

واتفق الرواةُ على ما اجتمع الثقاةُ عليه حين أكّدوا أن قوّة الجنيِّ الشفاف الواحد، حتى لو كان طفلًا يحبو، تزيد عن قوى عشرة آلاف جنيٍّ أزرق أو خمسة آلاف من النوع الأحمر.. ولاحقًا، أضاف المتأخرون زمنًا من شُرّاح «الشرح» تفصيلةً مهمةً، صارت مع مرور الوقت من الأصول الثابتة في نفوس سكان البلد، وفرضوا عقوباتٍ قاسية على كل منكرٍ لها أو ساخرٍ منها. حتى صار الخائفون من الشفافية، يعني معظم سُكان البلد، يكتبون هذه الأصول الثوابت

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بماء الذهب وبالأحبار الملونة، في لوحاتٍ يعلّقونها في غرف نومهم وفي الحمّامات. تقول هذه التفصيلة التي صارت أصلًا، له نصٌّ لا يجوز معه الاجتهاد: إن الجنَّ بطوائفه الثلاث لا يسكن الشريط البرزخي منفردًا، بل له جيرانٌ معروفون يتعاركون بعنفٍ ليلًا ونهارًا. من أشهر هؤلاء الجيران: الغولُ الأصلع، والديناصور النونو، والعنقاء الكسيحة، والعفريت الذي يلعب بالكبريت، والكرة التي لا تتدحرج، والكتكوت الشرس المفترس.. وهناك كائنات أخرى أخطر من هذه، وأفظع، وأهول.

الحميرُ لم يصدقوا يومًا تلك الخرافات، ولذلك لم يعترضوا على مكان الدعوة العامة، التي نهقتْ بها الجدَّةُ الجليلة «مبروكة» فانتشرت الدعوة في ربوع البلد عبر توالي ترديدها بالنهيق. وهكذا اتفقوا جميعًا على اللقاء فجرًا في «المنطقة البرزخية» بعيدًا عن أنظار البشر، للنظر في مشكلتهم التي تفاقمت حتى بلغت الذروة التي لا بد بعدها من خلاص.. فإما أن يجدوا حلًّا، أو يرحلوا نهائيًّا عن البلد.

* * *

بدأت مشكلةُ الحمير من شرارات صغار، صارت مع الوقت حرائق لا يقدر على إطفائها أو الفرار منها أيُّ حمارٍ، أو أتانٍ، أو جحش. فقد عرف سكانُ البلد أن بعض المطاعم المعروفة تقدم لروادها لحم الحمير مطبوخًا، فهاجوا وساقوا أصحاب هذه المطاعم إلى المحاكم، فصدرت ضدهم أحكامٌ مشدَّدة وأُغلقت محلاتهم. لكن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

محلات أخرى فُتحت وفعل أصحابها مثل السابقين، فسيقوا أيضًا إلى ساحات المحاكم، وكان مصيرهم هو مصير سابقيهم: الأحكامُ المغلّظة بالسجن المشدد، وإغلاق المحلات.

وظلت الأحوالُ سائرةً على هذا المنوال زمنًا، وكانت الظاهرة اللافتة وغير المفهومة في بادئ الأمر، هي أن المطاعم الكبيرة والدكاكين الصغيرة ومشروعات «الدليفري» كلما طبخت لحم الحمير، أقبل عليها سكانُ البلد إقبالًا كبيرًا، والتذُّوا بهذه الوجبات أكثر من غيرها. فطُرح هذا السؤال على مائدة البحث العلمي، وعلى طاولة النشطاء: ما هو السرُّ في الإقبال العام على أكل لحم الحمير؟

في البداية، ظهرت نظرية تقول إن الأغبياء هم الذين ينجذبون إلى لحم «الحمار» لأنه غبيٌّ مثلهم، وكما قال أرسطو فإن الشبيه يدرك الشبيه. ثم ظهرت نظرية مضادة تقول إن الأذكياء هم الذين يستبد بهم الحنينُ إلى الغباء، فيُقبلون بقوة على تناول لحم الحمير، وفقًا لقانون «الأقطاب المتشابهة متنافرة والمختلفة متجاذبة». وقد تعارك أصحاب النظريتين طويلًا، حتى سقطت النظريتان سقوطًا مروّعًا حين أعلنت وزارة المذاق، نتائج الاستقصاء الواسع الذي قام به عدد هائل من الباحثين، تحت إشراف جهاتٍ دولية مرموقة السمعة. فكان من أهم هذه النتائج، أن سكان البلدة جميعهم يحبون لحم الحمير، ويقبلون على أي وجبة تحتوي عليه مطبوخًا أو مشويًّا أو مسلوقًا ومُطيّبًا بالبصل والبهارات. ولا يُعقل، حسبما يقول هذا التقرير المعتمد، أن يكون

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

السكان كلهم أغبياء أو أنهم جميعًا أذكياء.. وهكذا سقطت النظريتان في هاوية النسيان.

لم يكن أمام السكان لتفسير الظاهرة التي شملتهم، إلا اللجوء لمراكز البحث العالمية. مع أنها تتكلف كثيرًا، لكن المسألة تستحق. وبعد عدة أعوام من الدراسة ومن إقبال الناس علانية على تناول لحم الحمير، رفضت مراكزُ البحث إعلان النتائج، أو تفسير السبب في هروب الباحثين فجأة من البلد. وازداد الموضوع تعقيدًا وإبهامًا، حتى انفرجت الأزمة مع اكتشاف أنه لا يوجد أصلًا أزمة، ويعود الفضل في ذلك إلى الكاتب الوحيد بالبلد، وهو صاحب القلم، اللوذعي المرموق «صابر العريان أبو ودان» الذي نشر مقالًا مطولًا في الجريدة الوحيدة التي تُطبع بعناوين وأسماء مختلفة كل يوم، وكان عنوان المقال طويلًا كأُذن حمار، ودالا على ما يريد الكاتب أن يقول.. كان نصُّ العنوان: لا داعي لحُمرة الخجل، فالحمرةُ أصلًا مشتقة من الحمير التي يأكلها الصغير والكبير، ويحبها النحيف والسمين، ونحن منذ قديم زماننا نأكل لحم الحمير الذي نُحب، فلماذا صرنا اليوم نغطس بلا هدفٍ ثم نقبّ.

أحدثتِ المقالةُ دويًّا هائلًا في البلد، وقوبلت باستحسانٍ جماهيريٍّ غير مسبوق. ولم يقدح فيها أو يحدّ من أثرها الإيجابي على الناس، قولُ أحد الهراطقة المشهورين بقلة الأدب وانعدام اليقين، إن تناول لحوم الحمير أكثر من مرةٍ واحدةٍ يُحدث نوعًا من الإدمان، الذي لا يستسيغ معه المدمن إلا لحم الحمير.. وكما هو متوقع، فقد صخب على الهرطوقي زاعقون كثيرون، وشككوا في سلامة عقله لأنه من

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

النباتيين. واحتجوا ضد رأيه الهرطوقي هذا، بالشعار الذي صار من يومه الأول مشهورًا: لا تتكلم أبدًا عننا، مادمت يا بارد لا تأكل أكلنا.

* * *

فلما انتهى الحالُ بأهل البلد إلى هذه المواجهة الصريحة مع الذات، تم إلغاءُ القوانين المحرمة لحم الحمير وإسقاطُ جميع العقوبات السابقة والتُّهم الظالمة، واعترف الجميعُ علانيةً بأن الأكلة الشعبية الأولى بالبلد، هي لحم الحمير. كما تم إبرام اتفاقية دولية مع الشقيقة كوريا، بموجبها تستورد البلدُ منهم الحمير وتصدّر إليهم كلاب الشوارع، لأن لحوم الكلاب الوجبة الشعبية الأولى عند الكوريين. وهي الاتفاقية المعروفة اختصارًا باسم «زِيح»، ويوم توقيعها صدحت في البلدين الأغنية التي تمّ تأليفها خصّيصًا لهذه المناسبة، ويقول مطلعُها بعد المقدمة الموسيقية المفعمة بالنهيق والنباح: كل واحد ينام على الجنب اللي يريّحه، وياكل حتّة اللحمة اللي تفرّحه.

وهكذا أصبح لحم الحمير بلا منازع، هو الوجبة الرسمية المفضَّلة. ثم صار تدريجيًّا هو الوجبة الوحيدة، التي تحظى بالقبول بين الناس. سواءً على هيئة مفرومٍ، أو شرائح تقلى، أو قِطعٍ مُكعّبةٍ تُطبخ لراغبي السمنة وتُشوي لمحبي النحافة.. حتى بقية الطعام صاروا يتخذونه من لحم الحمير، فمن أراد تنويع المأكولات وضع على مائدته لحم الحمير منحوتًا على هيئة الحمام المحشي، أو صدور البطّ، أو أوراك الديك الرومي. فيشعر الآكلون بلذة الطعم، ويستمتعون في الوقت

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ذاته بمنظر الطيور المخلية من العظام. وتخصَّصت جماعةٌ في تقطيع لحم الحمير على هيئة الأسماك والمأكولات البحرية، وجماعةٌ أخرى في تجهيز لحم الجحوش لتؤكل باردة، وجماعةٌ ثالثة في تسمين الحمير بالطرق التقليدية أو بتطبيقات الهندسة الوراثية.

ولم يلتزم الهرطوقيُّ الكافرُ بالصمت، ولم تردعه العقوبات الاجتماعية العديدة التي تعرّض لها، لأنه بارد، وظل يقتات على الخضراوات في تحدٍّ صارخ للجميع. ثم تعدَّى ذلك إلى الأفعال الإجرامية التي تستوجب المساءلة القانونية والتعذيب، إذ كتب ذات ليلةٍ على حوائط بيوت البلد، عبارة تدل على انحرافه وإنكاره للحقائق العلمية المعلومة بالضرورة، فلما صحا الناسُ صباحًا من نومهم الهانئ وجدوا على حوائطهم العبارة الدالة على ازدراء السائد. وكان العجيب بل الأعجب، هو جرأة الكافر الهرطوقي، إذ جعل عبارته الملحدة الحمقاء على هيئة سؤال، مع أن الجميع يعرف أن البلد تعتزُّ فقط بالإجابات.. كانت العبارة، أو السؤال التافه السخيف، تقول: هل سنجد الصديق في بلد النهيق؟

وقد قال فريقٌ من الحكماء المستحمرين إن عبارة الهرطوقي تدل على أنه ينوي الهجرة من البلد، وهذه بالطبع خيانة. وقال فريقٌ من حُفَّاظ النظام من أي تطوير إنه يُعاني من الوساوس والهلاوس. وأجمع المجموع على أن هذا المختلّ، لا بد من عقابه بالعدل. فحُكم عليه بالإعدام جوعًا وعطشًا، ثم حرق جثته كيلا يئول إلى نعيمٍ أو جحيم.. ولكن للأسف،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لم يُنفذ الحكمُ الصادرُ بمباركة السكان ورضاهم، لأن الهرطوقي المجرم هرب فلم يُعثر له على أثر أقدام أو حوافر، فثبت للجميع بسبب هروبه أنه كان دومًا كافر، فلما كشفته الأيامُ راح. وانتشر من يومها المثل الشعبي: أراح واستراح منه كل مرتاح.

ولم تكفِ الحميرُ المستوردة احتياجات سكان البلد، ناهيك عن عدم الإقبال على لحم الحمار المستورد والميل إلى «البلدي» الذي يجدونه أطيب مذاقًا، وأسهل هضمًا، وأنسب كيموسًا، وأفيد كيلوسًا. فارتفعت في السوق أسعار البلدي حتى كسرت حاجز الألف جنيه للحمار، وخمسمائة جنية للأتان، وأربعمائة للجحش. ومن المتوقع أن يستمر هذا الارتفاع، خصوصًا أن حمير البلد أوشكت على الانقراض ولم يبق منها في مزارع التسمين والبيوت الريفية وبدروم العمارات، إلا عدد محدود يتراوح بين المئات في إحصاءٍ والملايين في إحصاءٍ آخر. ومن المعلوم من الاقتصاد بالضرورة، أنه كلما قلَّ المعروض وزاد الطلب، ارتفع الثمن.

أما من جهة الحمير، فقد فشلت كل محاولات الخروج من المأزق وتفادي خطر الانقراض، فنهقت جميعًا في يوم واحد وساعةٍ واحدة، حتى يصل صدى النهيق إلى عنان السماء وأنحاء الأرض. وأعلنوا العصيان. لكنهم لم يجدوا نتيجةً إلا ضحكات السكان، وازدياد شهوتهم إلى الطعام المغذّي الذي لا غنى عنه ولا بد منه، خصوصًا بعدما صاروا يعافون لحم العجول والجواميس والغزلان والطيور التي لا تطير.. بل صاروا يعافون أيضًا الأسماك والفواكه وكل مأكولٍ مطبوخٍ بغير لحم الحمير.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وفي غمرة هذا اليأس الحميري التام، وبلوغ القنوط مداه. علا نهيق «مبروكة» كبيرة حمير البلد، فكان نهيقها يقول: يا طويلي الآذان ويا ضحايا هوس الإنسان، لم يعد هناك إلا حلّ وحيد، سوف أجرِّبه الليلة. وسواء نجح مسعاي الأخير أم كان نصيبه الفشل، فسوف يكون لقاؤنا فَجرَ غدٍ في المنطقة الفسيحة مترامية الأطراف، المسماة: شريط البرزخ. واحذروا أن يتأخّر أي حمارٍ أو أتانٍ أو جحشٍ، عن الحضور في الموعد المحدد. هذا بلاغٌ للجميع.

وفور سماعهم البيان، نهق الحمير جميعًا: السمع والطاعة، السمع والطاعة، السمع والطاعة أيتها الكبيرة مبروكة.

* * *

للأتان «مبروكة» مكانةٌ خاصة في نفوس حمير البلد كلهم، ليس فقط لأنها الأكبر سنًّا، والأكثر صبرًا، والأوفر حكمةً. ولكن لأسبابٍ أخرى عديدةٍ، منها أن «مبروكة» سليلة الجدة الغابرة «حاشي آتون» التي يعني اسمها حرفيًّا: التي يركبها آتون، ويقول لها حا، شي.. ومنها أنها حمارة عمدة البلد، بل هي الأتان المحبوبة التي طالما أوحت إليه سابقًا بأفكارٍ، جعلها لاحقًا قوانين.. ومنها أنها صاحبة الأقوال الحكيمة والعبارات البليغة التي يرددها الحميرُ، حين ينهقون وحين يتهامسون. فمن مشهور أقوالها المأثورة:

اعمل عبيط، تاكل بدل الشعير سميط.. امشي بشويش بشويش، لا تقدر عليك شرطة ولا جيش.. شيل على قدّك، مادام الزمن هدّك..

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يا زعلان من الشعير الجاف، أهو جالك التبن حاف.. طول ما انت كده حمار، بالأكيد هتنام في الدار. وغير ذلك من جواهر العبارات التي صارت مع دوام الترديد، قواعد يلتزم بها كلُّ حمارٍ أو أتان، عقب البلوغ وتخطي مرحلة الجحوشة.

ولم يقتصر أثر «مبروكة» وتأثيرها على الحمير، فحكمتها انسربت إلى عقول البشر وأقوالهم المأثورة. فمن المؤكد أنها كانت أول مَنْ نطق بالعبارة التي سارت مَثَلًا: اربط الحمار، مطرح ما صاحبه يريد.. وأيضًا: حمارتك العرجا يا عبد الرحيم، تغنيك عن استلاف حمارة اللئيم.. وأيضًا: تجري يا خيل جرى الوحوش، غير عليقة الحمير لن تحوش.

وقد أوحت مبروكة إلى صاحبها «العمدة» بهذه العبارات، فردّدها أمام الناس فأعجبتهم حكمته، وجعلوه بناءً على ذلك عمدةً عليهم. وقد وقع التحريف مع تداول سكان البلد لهذه المأثورات، إذ غيّروا بعض الكلمات لتصير العبارات أبسط وأسهل عليهم فهمًا.. ولأنها سمحة ومتسامحة، لم تعترض «مبروكة» على تحريف كلامها.

* * *

مع بزوغ أول شعاع للشمس، لمح الحميرُ الواقفون عند الحوافّ الشرقية للمنطقة البرزخية، أطراف آذان الجدة «مبروكة» فعرفوا أن الخلاص اقترب موعده، فاهتاجت بالبهجة قلوبهم. جاءت تمشي بخطى واثقةٍ، بطيئةٍ، عملًا بقاعدة: امشي بشويش بشويش.. لما

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اقتربت رويدًا، خفقت أفئدتهم واهتزت الآذان، ونهق ناهقٌ منهم: «جاءت، جاءت..».

سكت الجميعُ، وهدأ الصخب والتمرُّغ في الرمال. والتزم الحميرُ جميعًا، حتى المتحمّسون منهم، بحدود الأدب الواجب عند وجود الجدة.. ومع ذلك، ظل قادة المجموعات الحميرية الناشطة، ورؤساء جمعيات حقوق الجحوش، يتهامسون مع الأتن الخليعات المتحلّقات حولهم. وهذا أمرٌ معتادٌ في التجمعات لأن النشطاء لهم جاذبية خاصة، مثيرة، يفتقر إليها كثير من الحمير.

عند وصولها، أفسح الحمير ممرًّا للجدة لتصعد على التلة العليا بالمنطقة، وتلقي إليهم بخطابها الذي طال انتظاره.. على مهل سارت «مبروكة» في الممر المفسوح، يتبعها ما لا حصر له من الجحوش المبهورين بالاقتراب منها. وحين اعتلت التلة، تراجع الصغارُ فتقدّم الكبار وخلفهم الأصغر فالأصغر، وتكأكئوا جميعًا حول التلة وكلهم شغفٌ لسماع ما ستُدلي به الجدةُ المبجلة.

رفعت «مبروكة» رأسها، فامتلأت نظراتها فخرًا بهذه الجموع الهادرة من الحُمُر، لكنها لم تشأ التصريح بذلك كيلا تُصاب جماهير الحمير بالغرور، وبدأت كلامها بالدخول المباشر في الموضوع، ثم أعلنتِ القرارَ التاريخيَّ الذي انتهت إليه من بعد تفكيرٍ عميق. قالت بنهيقها الشجيّ المؤثر:

يا أبنائي الأعزاء. أعرف أنكم تعرضتم لظلمٍ فادح، وعانيتم من

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفزع، ومن فقدان الأحبة بسبب نهم الناس. وليت أفعال البشر المهووسين قد اقتصرت على بشاعة عمليات الذبح المحموم، ولكنهم فعلوا الأكثر من ذلك وتعدوا معنا كل الخطوط الزرقاء، فكان رجالهم يتحرشون في الحظائر الريفية بالأتن، وكانت نساؤهم ينظرن لذكور الحمير المستثارة، بطريقةٍ محرجةٍ لا تليق. ولن أفيض في هذا الكلام، فكلكم تعرفونه ولا داعي لنشر هذه المخازي الخادشة للحياء، في وجود الجحوش البريئة. المهم الآن هو المشكلة الأساسية التي دعتني إلى إطلاق نهيق هذا التجمع التاريخي، الذي لم يشهد الزمان مثله من قبل. أعني مشكلة الذبح المسعور، الذي وقف بالحمير على حافة الانقراض.. لكننا لن ننقرض.. لن ننقرض.. لن ننقرض.

هاجت الجموعُ وسالت دموع، وانطلق النهيقُ الهادر بالشعارات الحماسية: لن نؤكل بعد اليوم.. إحنا بس بنشيل، يا بشر ما بيحفظ جميل.. إحنا حمير وجحوش وأتان، لا جاموس ولا غزلان.. مشينا باحترام ف الشارع، أكلونا من الراس للكوارع..

هزت الجدة «مبروكة» أذنيها مراتٍ فعاد السكون، واستكملت ما كانت تنهق به. قالت: كان عندي حل أخير، لكنه لم يفلح، فقد أوحيت إلى العمدة بأن يقنع الناس بأكل لحوم البغال، وتكون الحمير له هو وأسرته فقط. فرفض. أفهمته أن الحمير في طريقها للانقراض، فاستخفَّ بالتحذير وردَّ عليَّ بقوله العاميِّ الخليع: «احييني النهارده وادبحني بكرة»، وأخذته نوبةً من الضحك. فلما عرفتُ أنه لا فائدة من الكلام قررتُ الرحيل وتركت خلفي مسقط رأسي وسيقاني

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ذلها فعلتم جميعًا، وجئت إليكم. مع أنه أعطاني وعدًا بعدم ذبحي تقديرًا للذكريات، ولكن هيهات أن أصدِّقه. وهانحن أمام التحدي الرهيب، وليس أمامنا إلا طريقٌ وحيد، هو اللجوء إلى الصحراء مع التسليم بأن الاحتمالات كلها مفتوحة. فربما تصادفنا واحةً نعيش فيها بسلام، وربما نهلك في الطريق جوعًا أو عطشًا. لكننا في نهاية الأمر ومهما كان المصير، فسوف نعيش أحرارًا أو نموت أبطالًا غير مستسلمين.. فهيا جميعًا إلى الصحراء.. إلى الصحراء.. إلى الصحراء.

* * *

تقدَّم الجموع، الحمارُ الحصاوي الحاصل على وسام «زهرة البرسيم» تقديرًا لشجاعته. إذ بادر يوم ذبحه برفس الجزار، وانطلق إلى الأرض حتى وصل قبل عامين إلى المنطقة البرزخية، وأمضى وحده هذه الفترة حتى لحق به باقي الحمير، ولم يزعجه خلال إقامته هنا إنسٌ ولا جانٌّ ولا حيوان. ولهذا استحق الوسام. تقدّمهم بهمةٍ، وانسربت خلفه الجموع متوغلين جميعا في قلب الصحراء، تاركين خلفهم البلد الماسخ، ومُرحِّبين بأي أقدارٍ قد يلقاها الحميرُ الأحرار في الصحراء.

فقط، ثلاثةٌ من الحمر وخمسٌ من الأتن خلفهم أربعةُ جحوش، هم الذين تهيَّبوا دخول الصحراء. قالوا: «ليلها قارس ونهارها هجير/ ولن نجد برسيمًا هناك ولا شعير». فنظرت الجدة إليهم بحسرةٍ، وقالت إنهم تأثروا بالبشر بسبب طول الصحبة، فصاروا مثلهم جبناء يفكرون بالبطون لا بالعقول. وتمنّت لهم ما يحلمون

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

به: أن يحتفظ البشر بهم، ويُحسنوا معاملتهم، باعتبارهم آخر مَن تبقّى من سلالة الحمار البلدي.. الجدة ودّعتهم بعينٍ دامعة ثم لحقت بالمتوجّهين إلى المجهول، فوقف الخائفون في مكانهم صفًّا ينظرون بأسى إلى مؤخّرات وذيول الأحرار الراحلين، وأطالوا النظر حتى غابت عن أعينهم سحابات الغبار.

الحمير الذين ذهبوا لم يرهم من بعد رحيلهم أحدٌ، ولا أحدٌ يعرف طبيعة النهاية التي كانت تنتظرهم. وصار يوم رحيلهم، هو آخر عهد البلد بالحمير البلدي.. لأن الذين رفضوا الرحيل إلى الصحراء، عادوا إلى ديار الذلّ مُطأطئي الرءوس، فهجم عليهم المفجوعون فورًا، فذبحوهم في الميادين وجعلوهم بعد ساعاتٍ معدودات أطباقًا مطبوخة تسدُّ البطون.

* * *

الهرطوقي، رحل مع الحمير الأحرار..

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ حيوةٌ أخرى ◊

اليوم عيد ميلادي، والحمد لله طلعت الشمس في موعدها. وسوف يكون اليوم حارًّا لأنه في منتصف الصيف، ومغبّرا لأن الهضبة القريبة من منزلي لا تكف خلال النهار، عن نفخ التراب فوق أسطح البيوت القاهرية المتناثرة تحتها بشكلٍ عشوائي، سألتُ أبي أيام شبابي عن السبب في أن شوارعنا كلها مائلة المسار، والبيوت متكوِّمة كأن مكنسةً جمعتها معًا بغير نظام ولا تخطيط. فقال بلسان الأصالة، إن ذلك من النعم الكبرى لأنه يجعل الناس قريبة من بعضها البعض. ثم سكت لحظة وأضاف بعد تأمُّلٍ عميقٍ: وعلشان الناس تتّعظ يا بني، وتعرف إن الفوضى هي الأصل..

الذي يحيّرني منذ صحوتُ من نومي، أن اليوم «جمعة» مع أن أمي المرحومة أخبرتني في طفولتي عدّة مرات، بأنها ولدتني يوم «ثلاثاء»، فما الذي جاء بالثلاثاء إلى الجمعة! هذا فعلًا، هو العجب العجاب.

لا أذكرُ في أي يوم من أيام الأسبوع، كانت تأتي أعياد ميلادي السابقة. لأنني لم أكن أنتبه إليها، أو أحتفل بها. لكنني اليوم منتبهٌ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وسوف أحتفل، لأنني بلغت الخامسة والأربعين وقد أوصاني المرحوم أبي وأكّد عليَّ، أن أترقّب بلوغي هذه السنّ وأحتفل بهذا اليوم حين يأتي. سألته عن سبب ذلك فقال بحكمة السبعة آلاف سنة، إن الأربعين هي سنُّ النضج والاكتمال التام والنبوة! سألته عن علاقتنا نحن بالنبوة، فأجابني بأننا الأتباع. وسألته عن سبب تأخير الاحتفال بعيد ميلادي إلى الخامسة والأربعين، مادامت السنُّ الحاسمة هي الأربعين، فأجابني بأننا يجب أن نتأخّر خمس سنوات بعدها، لأننا: ناس غلابة. وسألته عن شكل الاحتفال بهذا اليوم حين يجيء، فأجابني بما معناه أنني يجب أن أفعل يومها كل ما أريده وأتمناه، ولا أحرم نفسي من أي شيء. لهذا، كنت منذ عدة سنوات أترقّب مجيء هذا اليوم، لأذهب إلى ساحة سيدنا الحسين وأنعم بوجبة لحمٍ مشويٍّ بأحد المطاعم التي هناك، وهذا ما سوف أفعله ظهر اليوم.

فعلًا، أجمل ما في الحياة هو تحقيق الأمنيات.

طبعًا، سوف يستغرب الناسُ هنا أن دكاني «بقالة الأمانة» سيكون اليوم مغلقًا على غير العادة، وطبعًا لن أخبرهم بالسبب. لأنني أحب أن يبقوا في الوهم الذي يعيشون فيه، فهم يظنون أن الدكان لم ينغلق منذ ورثه جدي عن أبيه في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، ثم ورثه عنه أبي وأورثني إياه. هم لن يتذكروا أن جدي أغلق الدكان يوم بلوغه الخامسة والأربعين، وحقق حلم حياته بأن ذهب لزيارة قريته المطمورة بنواحي «أبو المطامير» فأكل بطة محشوَّة بالفريك، وحده. وأن أبي فعل الشيء نفسه حين جاء يومه، فحقَّق أمنية عمره

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وجلس طيلة اليوم على النيل، يأكل مع أمي الذرة المشوية على الفحم والترمس وقطعة الشوكولاتة الشهية، المستوردة.. لم يتغيّر شيء، لكن الناس تنسى فتظن أن الأمور تتغيّر، مع أنها ثابتةٌ على المنوال ذاته.

طبعًا، هناك تغييرٌ طفيفٌ واختلافٌ في بعض الظواهر، لكن الأشياء في جوهرها لا يمكن أن تتغيّر. فمن الظواهر السطحية المتغيِّرة، مثلًا، الأسماء.. هذا الحي الذي نسكن فيه ولا نفكّر في الرحيل عنه، نسميه الآن «مصر القديمة» وكان اسمه من قبل «مصر عتيقة» وكان اسمه قبل القبل «الفسطاط». أسماؤه تغيّرت، لكن حالته البائسة واحدة على الرغم من مرور الزمان وتبديل الأسماء. وهناك مثالٌ آخر: الناس هنا تناديني «عم جودة» وكانوا ينادون أبي «الحاج جودت» والذين من قبلهم كانوا ينادون جدي «أبو جودت». مع أن اسمي الصحيح، واسم أبي وجدي، هو واحدٌ لم يتغيّر: عبد الموجود! ولم تتغيّر طبيعتنا، فمادام الموجود موجودًا فنحن عبيده.

كنتُ في شبابي قاصرًا عن إدراك أسرار هذه الحكمة، فسألتُ أبي عن السبب في أن أباه اختار له اسمه، فقال إن هذا كان بتوفيق من الله. وسألته إن كان قد خطر بباله أن يسميني اسمًا آخر، غير اسمه هو واسم أبيه، فقال: استغفر الله.. الله يرحمه رحمة واسعة هو وأمي، ويرحم جدي رحمة واسعة هو وجدتي، ويرحمني حين أموت. وحدي. لا بد أن أدعو لنفسي لأنني للأسف لم أنجب ولدًا يشبهني، ويرث من بعدي هذه الشقة الحقيرة ودكان البقالة الذي تحتها، وحين يكبر ويفهم يتذكّرني

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ويدعو لي بالرحمة.. نعم، كان يجب لهذا السبب أن أُنجب، لكن الأمر لم يكن بيدى. منّك لله يا «نوسة».

هل يجب عليَّ أن أتزوّج بعدما بلغت هذه السنّ، فأعوّض ما فاتنى؟ منك لله يا «عزيزة». أنتِ التي تسبَّبتِ في عقدتي تجاه الزواج والنساء، فقد لجأتُ إليكِ تحت وطأة إلحاح أمي، بعد طلاقي بفترة، وطلبتُ يدكِ للزواج يوم جئتِ ساعة العصر لشراء ربع كيلو الجُبن البراميلي، فقلتِ ساخرة:

ـ يعني عاوز إيدي، بس؟

ـ لأ طبعًا، عاوز كل حاجة فيكِ. إنتِ فاهمة وأنا فاهم.

ـ طب هات الجبنة، وخلّص.

ـ والجواز؟

ـ ياشيخ أنا ناقصة عفانة.

طيب يعني يا عزيزة، الله يصبّحك بالغمّ. أنا طلبتك للزواج بأدب، وكان يمكنك أن ترفضي طلبي بأدب ولا داعي لإظهار معدنك. خصوصًا أنني، والله على ما أقول شهيد، لم أكن أيامها أعرف قصة غرامك مع فتحي سواق «البوكس» الذي لعب بكِ سنوات وسنوات، حتى صرتِ اليوم عانسًا لن يطلب أحد يدها. حتى الكلاب لن تطلب قدمكِ لتعضَّها.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لكن مأساتي الكبرى، كانت طبعًا مع طليقتي «نوسة» التي كنا في المدرسة الابتدائية غير المسوّرة، نناديها باسمها الرسمي: سعدية. أحببتها منذ أيام المدرسة، ولما تركناها في السنة نفسها لأجلس في الدكان مع أبي لأتعلّم البيع، وتجلس هي في البيت مع أمها لتنتظر أي عريس. لم أتوقّف عن التعبير لها عن حُبي، وكنتُ أُذيقها قطعةً من الجبن الرومي كلما جاءت لتشتري من الدكان شيئًا. ما كانت تشتري إلا الأرز السائب وقطعة الجبن القديم الغارق في «المِش» يعني لم تكن زبونة مهمة. لكن الحب كان يصنع المعجزات.

أذقتها مرة ثلاث حبّاتٍ من الزيتون التفاحي الذي لم أعد أبيعه منذ زمن، لندرة الطلب عليه بسبب غلوّ ثمنه، فانبهرتْ بطعمه ونظرتْ إليَّ بطرف عينيها نظرةً لا تُنسى، فظننتُ أنها صارت تحبني. لم أكن أعلم أيامها، والله على ما أقول شهيد، أنها متعلّقة بل متدلية من عرقوبها، بالضابط الذي تذهب كل يومين لتنظيف منزله.. يوم نازلتها بالزيتون فبدا لي أنها استجابتْ، أسرعتُ بإظهار أنني جادٌّ في العلاقة، وبعيدًا عن أنظار أبي ومسامعه حكيتُ لأمي ما جرى بالتفصيل، دون أن أُخفي عنها أي شيء. اعترفتُ لها بما قدّمته لحبيبتي، وحكيت كيف نظرتْ نحوي باسمةً بعدما أكلت الزيتون. استمعتْ أمي لكلامي باهتمامٍ عميق، ثم ظهرت على وجهها ملامح الألم وامتلأت عيناها بالدموع، لكنها لم تسكبها. وبعد لحظة من التأمُّل العميق، تقليدًا لأبي، تكلمتْ ببطء فقالت: حيث كده يا عبد الموجود يبقى لازم تتجوِّزها، بنات الناس يا بني مُش لعبة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أبوها «سويلم السبَّاك» وافق على الزواج من فوره، وأخذته نوبةٌ من الضحك ثم قال: خير البر عاجله.. بعد الزواج بساعتين أخبرتني «نوسه» بأن أباها تسرّع كعادته وهي لم تكن موافقة، فقلت لها ما كانت تقوله أمي دائمًا: قدّر الله وما شاء فعل.. مطّت شفتيها وقالت قبل أن تشدَّ فوقها اللحاف الشتوي الجديد: مفيش فايدة.

عشتُ معها أربع سنوات سوداء اللون مالحة الطعم، يوم الدخول بها فوجئت قبل نومها بأنها ليست بتولًا، فتسرّعتُ وأعربتُ لها عن استغرابي من عدم عذريتها، فقالت: أنت شكلك كده موضة قديمة، ومُش فاهم أي حاجة! قلت في نفسي: ربما تكون محقة، وفوق كل ذي علمٍ عليم. ولم أعد من يومها للكلام في هذا الموضوع، حتى لا تعتقد زوجتي أنني غير فاهمٍ، أو لا سمح الله: عنيد.

وبعد يومين من زواجنا، أصرَّت على الذهاب لتنظيف بيت الضابط. احترتُ في الأمر فسألتُ أبي، فرفض ذهابها قائلًا: خلّيها تنضّف بيتنا الأول.. ازدادت حيرتي فسألت أمي، فرفضت قائلةً: لمَّا تبقى تنضّف نفسها الأول.. وسألتها أن تصرف نظرها عن الذهاب إلى حيث لا نريد، فرفضت، وأضافت في آخر كلامها الكثير: شوف بأه، قُدامك حل من اتنين مالهمش تالت، تسيبني أروح للبيه أو تطلقني.

طبعًا، كان لا يمكن أن أطلّقها بعد زواجنا بيومين، لأن ذلك قد يؤثر على سمعتها بين جيراننا وأشقائنا الأشقياء الذين يكرهنا معظمهم، فوافقتُ على ذهابها.. كانت تعود منهكة وراضية، ولمَّا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سألتها عن سبب حرصها على الذهاب إلى هناك، مع أنها لا تحصل على أي أجر، مطّت شفتيها وهي تقول: إيه الفلوس والكلام الفاضي ده، عمومًا دي حاجة عمرك ما هتقدر تفهمها أبدًا.. استغربتُ كلامها وشعرتُ بأن في الأمر سرًّا، فسألتها بلطف:

ـ وليه بأه، مُش هاقدر أفهم؟

ـ علشان أنت غبي، عادي يعني.

ـ طيب يا نوسة، اكسبي فيَّ ثواب أنتِ، وفهّميني.

ـ يا ابني أنا لازم أروح أخدمه، أصل دي ثوابت. جدتي كانت بتخدم البيه جده، وأمي كانت بتخدم البيه أبوه، يبقى أنا بالعقل كده لازم أعمل إيه؟

ـ تخدميه..

ـ كويس إنك فهمت.

ومضت الأيام بحمد الله كالمعتاد، وبعد أن مات أبي ولحقت به أمي في العام التالي، أخبرتني «نوسة» بأنها تريد الطلاق! رددتُ عليها بالعبارة المعتادة المشهورة، فاندهشتْ لحظةً ثم استعادتْ عقلها الذي ذهب حينًا، وقالت بحنق: يعني إيه أبغض الحلال عند الله، أمّال الناس دي اللي عمّاله تتطلّق كل يوم، كل دول مُش عارفين إنه أبغض الحلال! دول بالصلاة على النبي كده بيتطلّقوا أكتر ما بيتجوّزوا..

رجوتها أن تصبر حتى نُرزق بولدٍ يحمل اسمي ويرثني من بعدي،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ويدعو لي، فصرختْ فيَّ قائلةً: إحنا لو قعدنا كده ألف سنة، عمرنا ما هنخلّف أبدًا.. لم أستطع إقناعها فوعدتها بالطلاق الهادئ، إذا أخبرتني بالسبب الحقيقي الذي يدعوها لهدم أسرتنا التي تعيش كالمعتاد في سلام وأمن. وقد قدّرتُ صراحتها، وشعرتُ فعلًا بالفخر بها حين أخبرتني بكل وضوح، بأن الضابط الذي تخدمه حصل مؤخّرًا على ترقية، وسوف ينتقل للعمل بعيدًا عن القاهرة. وقد يبقى فترة هناك، وطبعًا ليس من السهل في هذا الزمان الرديء أن يجد امرأةً مخلصة مثلها تخدمه، وتُعد له كل يوم «السَّلَطة» التي يحبها، وتلبي احتياجه الجارف للتسلُّط.. فاقتنعتُ بكلامها، وطلقتها.

* * *

شيء عجيب. لماذا أتذكر الماضي الذي ذهب وانقضى، يوم عيد ميلادي الوحيد؟ ليس الوحيد طبعًا، لأن خمسة وأربعين عيدًا مرّت عليَّ قبله، لكنها ستكون المرة الأولى التي أحتفل فيها. والأخيرة. فعلًا، يجب أن أنسى الماضي كله والحاضر والمستقبل، فلا يشغلني شيء إلا الاحتفال بيوم العيد السعيد. العيد يعني السعيد، ولهذا تعوّدنا أن نقول «عيد سعيد» وأن نقول «فرحة العيد»، وأن نقول عن اليوم النادر الذي نسعد فيه «النهار ده عيد».

جارنا الأستاذ عبد السلام صابر عبد السلام صابر إلى ما لا نهاية، مدرس اللغة العربية في مدرسة مصر القديمة الابتدائية، المتباهي بأنه يُعطي دروسًا خصوصية لتلاميذ مدرسة مصر الجديدة الإعدادية.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اكتشفتُ أمس أنه لا يفهم شيئًا، وأدركت سبب سخرية التلاميذ منه. الرجل الحمار جاء في الصباح يشتري تموينه اليومي، أقصد السجائر الخمس، فأردتُ أن أُلاطفه في الكلام لعل العبوس المحبوس في وجهه يهرب لحظة، فأخبرته وأنا أبتسم ابتسامتي المعتادة بأن غدًا عيد ميلادي، فازداد وجهه عبوسًا وغاظني حين ردَّ عليَّ بما لم أفهمه.. قال: عيدٌ بأي حالٍ عُدت يا عيد؟

ـ يعني إيه يا سي عبد السلام، العيد هو الحال السعيد طبعًا.

ـ العيد مُشتق من العودة، مُش من السعادة.

ـ يعني إيه مُشتق؟

ـ يعني هات السجاير يا جودة، عاوز امشي.

ـ خُد، مع إني كنت حابب أفهم كلامك الغريب ده.

ـ وعلشان إيه تفهم! خلّيك كده مبسوط.

ومشى بسرعة من أمامي.. رجل حمار جدًّا.

* * *

بعد استمتاعي بالبقاء في السرير ساعاتٍ، سعيدات، قمتُ نشطًا إلى الحمّام كي أستعدّ للاحتفال بيوم عيد ميلادي الوحيد، السعيد. يا سلام، الاستحمام تحت «الدش» في الصيف شيءٌ جميل، ولا بدّ فيما بعد أن أداوم عليه ولو كل فترة.. بعد استحمامي لبست أحسن ما عندي من ملابس: القميص والبنطلون. وانطلقتُ من البيت دون

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أن أنظر ناحية الدكان حتى لا أضعف فأفتحه، فأكون من الخاسرين لأهم يومٍ في حياة الإنسان. المرحوم أبي قال لي، إن المرحوم أبيه قال له، إن المرحوم جده سمع من أبيه أنه قال: أهم يوم في حياة الإنسان هو عيد ميلاده الخامس والأربعين.. وما دام الأجدادُ الأجلّاءُ القدماءُ قد قالوا قولًا، فهو بالقطع صحيح.

اتجهتُ مسرعًا إلى كورنيش النيل وألقيتُ عليه نظرة الأسى الواجبة، ثم استدرتُ بوجهي إلى الخلف ونظرت بالقهر الموروث إلى هضبة المقطم الجرداء، ثم اتجهتُ يمينًا وأسرعتُ الخطو حتى شعرت بأنني اقتربت من مستشفى قصر العيني، وهناك وقفتُ على الرصيف المقابل للكورنيش ورفعت بثقةٍ يدي وأنا أنادي: تاكس، الحسين؟

جلستُ في التاكسي مستريحًا كالملوك والأمراء، وحمدتُ ربي على نعمة الراحة، وعلى المال الذي لم يجعلني أتردّد في استدعاء سيارة الأجرة. طبعًا، الفلوس حلوة. فور ركوبي بالمقعد الخلفي كالأثرياء الواثقين بما يملكون، نظرتُ يسارًا لأرى النيل النجاشي وحين انحرف السائق بالتاكسي يمينًا ليدخل شارع قصر العيني من أوله، نظرتُ يمينًا حتى أتحاشى النظر إلى المستشفى. بعد سنوات، سوف يحين الوقت ويتسع فأنظرُ إليها ومنها وفيها، كثيرًا، فهي المكان الذي كان ذهب إليه جدي عندما مرض فظل محجوزًا فيه حتى مات، وحين مرض أبي حجزوه هنا شهرًا حتى حانت لحظة وفاته، وبعد سنوات سوف أمرض ويأتون بي فأحتجز هنا حتى.. لا.. لن أفكّر الآن في الموت، وإنما في الحياة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بعد عبورنا من أمام المستشفى رحتُ ألتفتُ براحتي يسارًا ويمينًا، واختلستُ نظرة إلى كوبري الملك الصالح. وفجأة، رأيتُ الملك الصالح نجم الدين أيوب مقبلًا على صهوة حصانه، وحوله مماليكُ كثيرون، وخلفهم العبيد! ما هذا الذي أرى، وأين ذهبت البيوت والناسُ؟ بعد هذه اللمحة الخاطفة، عادت الأشياء من حولي إلى طبيعتها، وارتدَّ الزحامُ الخانق وقت الظهيرة. الحمد لله. لما وصل السائق بنا إلى ميدان التحرير، لم أجد الميدان. كان المكان مغمورًا بالماء والطين اللازب الذي كانوا قديمًا يسمونه: اللوق.

أين الناس؟ وما هذا الشجرُ المتباعد عن بعضه البعض والغاب الكثير؟ انحرف السائق يمينًا فعادت الأشياء ثانيةً إلى طبيعتها، ونظرتُ إلى ظهر السائق فوجدته يدخّن سيجارة، فأدركتُ على الفور أنها ملفوفة بالحشيش، ولهذا ذهب عقلي بعيدًا عني مرتين.. لم أستطع السكوت، وشعرت بأن ثورتي لابدَّ لها أن تنفجر، فصحتُ فيه بكل قوتي:

ـ أنتَ بتشرب حشيش، إيه، ما بتختشيش!

ـ يعني إيه؟

ـ يعني أنت عارف السيجارة اللي ف إيدك، ولّا هتعمل عبيط.

ـ دي سيجارة عادية، خُد شوف بنفسك.

هي تبدو عادية فعلًا، لكنني أصلًا لا أعرف شكل الحشيش. الظاهر أنه يخدعني، وإلا فما الذي طاح بعقلي فجعلني أرى شيئًا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

غير موجود، بالقطع هناك شيءٌ غير طبيعي في السيجارة جعلني غير طبيعي. أعطيته السيجارة التي توشك على الانتهاء، وقلتُ له بحزم: طيب خلاص، أنا هانزل هنا، كام حسابك؟

ـ الحساب يوم الحساب، روح مشوارك شكلك اتأخرت كتير.

* * *

تركني السائق عند مطلع كوبري الأزهر، فكنتُ مضطرًا لصعوده واستكمال السير على قدميّ. عمومًا، المسافة صارت قريبة ولا داعي لركوب تاكسي آخر، فالسائقون صاروا اليوم خطيرين ويحسن اجتنابهم. عند منتصف الكوبري نظرتُ إلى ناحية جامع السيدة زينب، فوجدتُ الجامع قد صار أصغر، وليس حوله إلا بعض البيوت العتيقة المتناثرة. ما هذا؟ السيارات الكثيرة لم تعد موجودة، والشوارع. الكوبري أيضًا اختفى، والبيوت، وأنا.. هذه نتيجة الركوب مع سائق يدخّن الحشيش في عزّ النهار، بلا خشية من شيء.

صبرتُ حتى انقشع عني المشهد الغريب الذي مرَّ كلمحٍ بالبصر، وأسرعتُ حتى نزلتُ من الكوبري عند وكالة الغوري، ومشيتُ بعد ذلك هادئ البال حتى نزلت النفق المحفور أمام الجامع الأزهر، فامتلأتُ بالطمأنينة. صعدت من النفق مع الصاعدين، فوجدت أمامي المطاعم التي أسعى إليها، لكنني لم أجد عندي رغبةً في الطعام، فقلتُ لنفسي: لا بأس، سأتجوّل في الأنحاء حتى أجوع، فيكون أطيب المأكول ما يأتي بعد جوع.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سرتُ في شارع أخبروني بأن اسمه «المعز» فاستغربتُ الاسم. أليس الله هو المعزّ، وهو أيضًا المذل! فكيف يسمون الشارع بهذا الاسم.. وصلتُ إلى نهاية الشارع فوجدتُ بوابة كبيرة من الأزمنة الغابرة، وحولها سورٌ عالٍ لا معنى له، وتحتها مقبرةٌ صغيرةُ الحجم محشورةٌ خلف ضلفة البوابة الخشبية الكبيرة، التي كانت يومًا مطعّمة بقطع النحاس، مكتوب على المقبرة أنها مدفن سيدي «الذوق» فأدركتُ من فوري معنى قول الناس: الذوق ما خرجش من مصر! وأردتُ أن أتأكّد مما أدركته، فسألت أحد العابرين فأجابني بعد أن ضحك بسخريةٍ، قائلًا بلسان أهل اللهو: الناس بتقول إن الشيخ ده زهق، وكان هيسيب مصر، فمات قبل ما يطلع من بابها.. سكت لحظة ثم أضاف بلسان أهل السهو: الله أعلم، يمكن كان عاوز يدخل فمات عند الباب، فمفروض الناس تقول الذوق ما دخلش مصر» هه هه ها.

هذا يومٌ مليءٌ بالعجائب. سأعود من حيث أتيتُ، وحين أصل إلى المطاعم سيكون الجوع قد عضَّ معدتي، فأهنأ بأكلتي. ولكن لا بأس لو دخلتُ إلى هذا الجامع، فغسلتُ وجهي ببعض الماء، ثم أواصل المسير.. قرأتُ على البوابة أن هذا المسجد اسمه «جامع الحاكم» ولكنني عندما دخلته لم أجد أحدًا يصلي فيه، فأسرعتُ بالخروج كمن يهرب خائفًا من شيء لا يعلمه، ولحظة خروجي شعرتُ بأنني أعرف هذا المسجد الذي لا يسجد أحدٌ فيه، أو أنني جئتُ إليه سابقًا. طردتُ عني الوساوس، بهمسي إلى نفسي بأنه من المؤكّد أن أمي جاءت بي إلى هنا وأنا صغير. عادي يعني.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المقهى المواجه للجامع الذي لا يجتمع فيه أحد، يفرش الكراسي أمامه ويتيح الجلوس. رأيتُ من المناسب أن أرتاح قليلًا مع كوب شايٍ وعدة أكوابٍ من الماء البارد، فجلستُ وليتني ما فعلت، فما كاد «القهوجي» يضع أمامي الصينية التي فيها كوب الشاي وزجاجة الماء المثلّج المذهل شكلها في هذا القيظ، حتى أقبلت نحوي من داخل الجامع امرأةٌ تشبه الأجنبيات. من أين جاءت هذه المرأة! فقد كنتُ قبل قليل بالجامع ولم أرها بداخله، ثم جلستُ أمامه ولم أرها تدخل إليه.. ولماذا تُقبل نحوي مبتسمةً كأن بيننا معرفة؟

لأنني مهذّبٌ، أو في الحقيقة مرتبك، فقد أدرتُ وجهي للوجهة الأخرى حتى أتحاشى النظر إليها وهي مقبلة. لكنها ظلتْ تتقدم حتى وقفت قبالتي وهي تقول بلهجة السوريين التي سمعتها في المسلسلات التلفزيونية عدة مرات: كِيفك، ما توقعت إني أشوفك اليوم، شو، جاي تزور مولانا؟

ـ مولانا مين يا ستّ، أنا ما أعرفش أي حاجة.

ـ أنتَ بتنكر حالك مني؟

ـ حال إيه يا ولية أنتِ، أنا لا عندي حال ولا مال. أنا بالعربي كده راجل غلبان.

ـ كِيفْ يعني غلبان! أنت أكيد بقيت من الأجاويد.

خفق قلبي بشدة واستولى عليَّ الرعبُ، إذ كيف عرفتْ هذه المرأة أن اسمي «جودة» فهل تعرفني حقًّا أو تعرف شخصًا يعرفني، أم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

هي تحتال عليَّ لغرض في نفسها.. هي على كل حال جميلة، وليس عندي مانع أن تحتال عليَّ امرأةٌ مثلها. وعمومًا، ليس معي إلا مائة جنيه في جيبي، وعيونها الخضراء هذه تساوي أكثر من ألف جنيه. فيا بال بشرتها البيضاء، وشعرها الحريري الأصفر البادي بوضوح من تحت الطرحة، وثوبها الأنيق، وصوتها الرقيق! يلَّا، في داهية المائة جنيه والوجبة المشوية والاحتفال باليوم العظيم، كل هذا لا يساوي ساعة جلوس مع حورية كهذه.. لا يصحّ أن أتركها تنظر في عيني بهذه الطريقة الساحرة التي تسلب الألباب، ولا بد أن أتكلّم حتى لا تملَّ مني فتتركني وتذهب عني. وليكن ما يكون:

ـ لامؤاخذة يعني يا هانم، أنتِ ازاي عرفت ان اسمي جودة.

ـ جودة! إيش هادا. أنت اسمك اللي بعرفه من أيامنا، أبو الجود عبد الموجود بن عبد الموجود.

ـ صح، بس مفيش حكاية «أبو الجود» دي.

ـ بلكي في ها الحيوة، لأ. بس لما كنا مع بعض، كان الكل يناديك أبو الجود.

ـ إيه ده، هوَّ احنا كنا مع بعض.. فين يعني؟

ـ في الفسطاط.

ـ نعم يا ختي، فسطاط إيه؟ أنا ساكن في مصر القديمة. بس صحّ، هيَّ زمان كان اسمها الفسطاط فعلًا!

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ تسلم لي عيونك.

ـ وأنتِ ساكنة فين؟

ـ أنا في هادي الحيوة، بعيش في السويدا مع أهلنا الدروز، وبيّي من الأجاويد.

ـ يعني إيه بيّك؟

ـ أبوي، وهوّ اللي خبّرني إني إذا جيت زرت مولانا الحاكم، يمكن التقي فيك.

ـ شكلك كده بتسرحي بيَّ.

ـ لا، وحياة سيدي سلمان.

ـ سلمان مين؟

ـ الفارسي. المهم إني مبسوطة كتير إني شفتك اليوم، وكنت عارفة إني لا بد التقيك في هادي الحيوة، وأكيد هنلتقي تاني.

ـ إيه ده، أنتِ ماشية كده خلاص. يعني مفيش أي حاجة؟

ـ حاجة إيه ياروحي، ما أنا كنت زوجتك تلاتين سنة. ما شبعت مني؟

ـ وهوَّ أنتِ برضه يتشبع منك.

ـ هههه، يخليلي إياك.. ما بتتغيّر أبدا.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تركتني جالسًا على المقهى شارد الذهن، وذهبتْ ومعها عيني أتابعها بشغف حتى خرجت من البوابة الكبيرة، فاختفت عن نظري. لكنها أكّدت لي قبل رحيلها، أننا حسبما يؤمن الدروز، سوف نلتقي مجددًا.. في هذه الحيوة، أو في حيوةٍ أخرى تالية.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ عنّين، بكسر العين ◊

«أنت خاين.. خاين».

صاحت صباحُ بذلك في وجه زوجها. فكان صوتُها المُعذّبُ الشجيُّ، مُشوَّشَ الأحرف، كأنه حشرجةٌ تخرج من صدرها مشتبكةً بأشواكِ العوسج. أو كأنه ترانيم متبّلةٌ بعلقمية ذلك العشب الشيطاني الذي ينمو على ضفاف الترعة، شحيحة الماء، الملتفّ مسارُها الحلزوني حول قريتهم الفقيرة المشتق اسمها «نجع الحلزون» من هذه الترعة غير المُترعة.. حتى المواشي، تتحاشى هذا العشب الشيطاني المُرّ وتعاف أكله، لكن فقراء القرية يتقوّتون به بحُكم الاضطرار لدفع الجوع.

لم تجد «صباح» ما تضيفه لصراخها، فاحتشدت بقلبها الأوجاع وانفجرت من عينيها الواسعتين دموعٌ وفيرة، تكفي لإنبات شجيرة. لاحقًا، سوف توحي دموعها لزوجها بفكرةٍ مبتكرةٍ، أما الآن فإن رأسه خالٍ من كل الأفكار. سَكَتَ وسَكَنَ واستكان، مستسلمًا لعجزه عن تقديم العذر المبرّر لعجزه، ولأحواله المريعة التي أوصلتْ «صباح» إلى هذا الانهيار التام، المتمنّي الاستقلال التام أو الموت

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الزؤام. زؤام. توقف رأسه عن التوقُّف حين اصطدم بهذه الكلمة، ودار، فطفرت فجأةً بذهنه فكرةٌ رآها عبقرية. حتى إنه ابتسم بغير قصد، فازداد اهتياج زوجته إذ رأته يضحك بلا سبب، وظنته إنسانًا قليل الأدب. فاحتدم غضبُها وكرّرت بصوتٍ أعلى مطلبها المعتاد عند غضب الزوجات: الطلاق التام أو الموت الزؤام.

كان في غفلةٍ تامةٍ عما يحيط به، لاستغراقه الشديد في الفكرة العبقرية المستوحاة من كلمة زؤام. فقد بدا له أنه إذا استعاد قدرته على الواجبات الفراشية المطلوبة، فسوف ترضى عنه «صباح» وتنسى الحرمان الذي كان، وبطبيعة الحال سوف تحبل بعد أول لقاءٍ، بولدٍ سوف يشبه أباه الخالق الناطق الخارق. وعندئذٍ، وبدلًا من تلك الأسماء العجيبة التي صار أهل هذه القرية التعيسة يسمون بها المواليد، ذكورًا وإناثًا، سوف يسمي هو ابنه بهذا الاسم اللذيذ الذي سوف يُدهش أهل القرية: زؤام.. طبعًا أهل القرية سوف يظهرون في أول الأمر امتعاضهم من الاسم، لأنه جديد، وهم عادةً يمتعضون من كل جديدٍ. ثم يعجبون به بعد حينٍ ويقلّدونه، فيطلقونه على كثير من المواليد الجدد الذين يفدون من بطون الزوجات بالقرية، كالذَّرِّ. وقد يتفنّنون، فيختارون للطفل الذكر اسم «زؤام» فإن فُجع أحدهم بالأنثى، فسوف يسميها «زؤامة» أو «زؤمة».. لكن ابنه سيبقى أول مَن حمل هذا الاسم الطنّان الرنّان، وحين يكبر سيكون كبير الزؤمين والزؤمات.

استطاب الفكرة، فكاد عقله يعود للعمل وأوشكتْ شفته السفلى

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

على الارتفاع إلى مكانها من بعد طول تهدُّلٍ، لكن «صباح» عادت للصياح فارتجتِ الجدران وبقي عقله وشفته السفلى على حالهما، وجمدتْ على وجهه علاماتُ العَتَهِ والتخلُّفِ الذهنيِّ والرغبة في النعاس، وغير ذلك من الانفعالات الصادقة والكاذبة التي يواجه به الأزواجُ دومًا، ثورات الزوجات.

* * *

«أنت بتخُونِّي يا ليل.. صحّ؟».

صاحت «صباح» بذلك فأبقته صامتًا، صامدًا في قعر بئر البلاهة، ومكتفيًا بالتحديق في الفراغ المحيط به. وهنا استشعرتِ الخطر، إذ ظنّت أنه ربما ينفجر في أي لحظة، ويُطلّقها. فتردّد بداخلها على الفور صوتُ أمها وجدَّتها وجدَّة أمها، وراحت أصواتهن جميعًا تردِّد بنغمةٍ واحدةٍ، الأغنية النسوية التليدة: «أعيش في ضِلّ راجل/ ولو كان أكبر فاشل»، فمال قلبها إلى دخول دهاليز الأمل ومتاهاته، لأنها في نهاية الأمر لا تريد خراب البيتِ أو فوضاه.. وعندئذٍ تمالكت نفسها، وقالت له بصوتٍ مبللٍ بدموع الريِّ المستقبلي:

«أهون عليك تخونِّي؟».

طبعًا لم يرد. أين السؤال أصلًا ليرد عليه! هذه العبارة حسبما أفهمته أمُّه من قبل عدة مرات، ليست سؤالًا وإنما هي دعوة مجانية مفتوحة، ليأخذ زوجته إلى حضنه ويضمها فتهدأ، ثم تلتهبُ رغبةً فتلهبه، وفي خاتمة المطاف سوف يصل كلاهما إلى الحال المريح،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

والختام السعيد لكل الحكايات: وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات.. استراح لهذه الفكرة وتمنى لو يبقى قليلًا مُتمتّعًا بها، لكنه ارتدّ إلى الواقع عندما أخرجه من إبحاره في محيط التأملات، صياحُ زوجته «صباح» الذي يسميها في سره «الشعنونة نونة نونة» فاستفاق على سؤالها السخيف اللحوح: أهون عليك تخونّي؟ سكتتْ لحظةً قصيرةً ثم عاودت المتابعة، لكنها هذه المرة لم تزعق كالسابق، وإنما قالت بصوتٍ رخوٍ كالطبيخ الحامض: رُدّ عليّ يا «ليل» حرام عليك كده، أنا برضه مراتك وهاكون في يوم من الأيام أم عيالك..

هنا أدرك أنه لا فائدة من هذا الحوار، فانتفض واقفًا من بعد نطاعة النُّعاس المُفتعل وخرج من البيت مُغاضبًا، أو مُظهرًا الغضب، بعدما زعق فيها بكل ما فيه من كذبٍ قائلًا: أنا مُش عاوز كلام في الموضوع ده تاني.

* * *

كان اسمه منذ مولده يضايقه، ولا يرى فيه من المعنى إلا العبودية للقهر المتوقّع، ولذلك بادر إلى تغييره فور خروجه من سرداب الطمس المدرسي للعقول، حاملًا الشهادة. يومها انعقد عزمه على إسقاط اسمه «صابر» للأبد، بعدما ملأه يقينٌ راسخٌ بأن هذا الاسم لم يعد يناسبه. وهو لم يكن أصلًا يحبه، وقد صبر عليه حتى صار اليوم يمتلك زمام أموره، وبالتالي فقد آن أوانُ التغيير واقتحام عالمه الجديد، باسمٍ جديد. كان ذلك في مطلع العام ٢٠١١ وكان جالسًا في عتمة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

حوش بيت أبيه، ويومها استعدّ للتفكير العميق في اسم جديدٍ بأن ملأ بطنه من «برام الكشك» الذي كانت أمه قد طبخته قبل عدة أيام، وعبَّ بعده من «الزير» الماء الكثير، ثم ذكّر نفسه بالقاعدة المعروفة: بعد الأكل لا بد نحلّي.. نهش من الطبق المنسي على الطاولة، حفنةً من ثمار «الحرنكش» وخرج بها في حِجْر جلبابه، كالغانمين العائدين من غزوة. سار على ضفّة الترعة متمهّلًا كالعنكبوت، حتى جلس مختليًا بنفسه تحت شجرة المانجو غير المثمرة التي بمدخل القرية.. مدخل القرية الوحيد، هو المخرج الوحيد منها، لأن النقائع السَّبِخَة تحيط بها من الجهات كلها.

راح يحرِّك أفكاره على وقع صوت الحرنكش المتفجِّر بين ضروسه، وهو يحسُّ باستمتاعٍ كبيرٍ، حتى أدرك في لحظة إشراقٍ إن اسمه الجديد لا بد أن يكون دالًا على شخصيته، ومرتبطًا به. وهو مرتبط حاليًا بالبنت «صباح» التي يدللونها باسم «صابحة» للإيحاء بأنها قطعةٌ من القشدة البلدي، مع أنها أشبه بالمشّ والجبن القديم. ولكن مادامت هذه البنت هي المتاحة، فسوف يختار لنفسه اسم «صبحي» أو «صابح» ليناسب ارتباطه بها.

كاد يستريح لهذا الاسم، لكنه سرعان ما عاد وعنَّف نفسه على هذا الاختيار الدال على ضعف الشخصية، وأحرجه سؤاله لنفسه: وماذا إذا طلق «صباح» الصابحة هذه، ثم تزوّج بعد حين غيرها، هل ستلزق ذكراها به مدى الحياة، بسبب هذا الاسم؟ لا، وألف لا.. بعدما الْتهم «الحرنكش» كله، وكما هو متوقع، سطعت بذهنه

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الأفكار العبقرية وتوهَّجت. فانتهى إلى أنه سوف يقوم بإشارة خفية إلى البنت «صباح» التي يحبها ويخونها كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، بأن يختار اسمًا منفصلًا عن اسمها، وفي الوقت ذاته يرتبط بها على نحوٍ خفي.. سيكون اسمه من اليوم «ليل».

لم يستطع السيطرة على انفعاله بسبب هذا الاسم، الاكتشاف، فأخذ يركضُ على شط الترعة الحلزونية وهو يصيح: وجدتها، وجدتها.. وحين وصل منزلهم كان أبوه الحاج «أُنسي المنسي» جالسًا بمفرده على الدكة الخشبية المتهالكة، الموضوعة إلى جوار باب البيت، بعنايةٍ تناسب جلوس شخصٍ كان يومًا مهمًّا.. وبالطبع، كان أبوه يجلس في ملابسه الداخلية كالمعتاد، لأنه من يوم عزله عن الحُكم في النجع لم يلبس جلبابًا. ابتهج الولدُ حين وجد أباه ساكنًا، لا يعاني نوبات التشنُّج العَتَهي. ومن شدة ابتهاجه، وبكل ما فيه من نشوةٍ وانشراحٍ، ألقى بنفسه في حضن أبيه كأنه عائدٌ من بعد هجرةٍ طويلة.

أزاحه أبوه عن صدره، وصدَّه عنه، ناصحًا إياه بالاستحمام. تجاهل كالمعتاد النصيحة، وفاجأ أباه بأنه انتهى بعد تفكيرٍ عتيد إلى اختيار اسم جديد، يناسب حياته الجديدة المقبلة.. بلا اكتراثٍ كافٍ، رفع الأبُ العطوفُ عينيه ببطء إلى ابنه وسأله متمهِّلًا: واخترت اسم إيه يا بهيم؟

ـ ليل.

أصيب الأبُ بالذهول المعتاد لحظةً ثم أفاق متوتّرًا، فاستشعر ابنه

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الخطر وعاد إلى الوراء بخطواتٍ متسارعة، لكنها لم تنقذه من مطفأة السجائر البلاستيكية التي قذفه بها أبوه وهو يصيح فيه حانقًا: ليل، دا انت ليلة اللي خلّفوك سودة.

* * *

عاد إلى جلسة التأملات تحت شجرة المانجو العجفاء، ومجدّدا ساح بأفكاره بين سماوات الفكر ساعاتٍ، ثم قام بهمةٍ فأسرع الخطى إلى بيته وهو يقول بدون صوتٍ مسموع: وجدتها، وجدتها.. وجد أباه لا يزال جالسًا في مكانه وعيناه سابحتان في الفراغ المحيط، فعرف من هيئة أبيه ومن الاستغراق الشديد البادي عليه، أنه كالعادة يحسب بلا مقياس مساحة السماء. لم يشأ أن يشوِّش على أبيه، ودخل الدار من فوره ليخبر أمه بما انتهى إليه، فالأمهاتُ أكثر طيبةً من الآباء وباختيارهن ينخدعن، ويسعدن بأنهن مخدوعات.

وجدها جالسة أمام الفرن وعيناها سابحتان في الفراغ المحيط، فعرف أنها كالعادة تحصي عدد المرات التي طبختْ فيها، قبل أن تتزوّج أباه وبعد زواجها منه.. فكّر لحظة في أن يتركها لحالها وللمهمة المستحيلة، لكن حاله غلب عليه فاقترب منها بلطف عاصفةٍ ترابيةٍ بطيئة، وقال لها بصوتٍ خفيض: خلاص يا امَّه، أنا اخترت اسمي الجديد بعد تفكير، ناجز.

ـ طيب يا ابني، انجز وقول الاسم، علشان بالي دلوقتِ مشغول شويتين.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ ناجز.

ـ يا ابني بقولك بالي مشغول، قول الاسم على طول.

ـ ناجز. هُو الاسم كده، ناجز.

ـ والله ياضناي أنت بعبطك ده، عمرك ما تنجز أبدًا. أقول لك، سيبك من حكاية تغيير الاسم، أنت أحسن حاجة ليك تتجَوز.

أشعره الاقتراح بالارتياحِ، فصارح أمه بأنه كان يفكر فعلًا في الزواج، بل فكَّر في اسم يناسب البنت التي يريد الزواج منها، لكن أباه اعترض.. باهتمام الأمهات سألته عن الاسم الذي اختاره أولًا، ولمّا أخبرها بأنه «ليل» سكتتْ ثم ابتسمت وقد فهمتْ أن ابنها يريد الزواج من «ليلى» بنت أنور الخرَّاط، وأسعدها هذا الاختيار. لكن ابنها سارع بتصويب فكرتها، وقال بوضوحٍ أنه يهوى «صباح» بنت وجدي الفرّان. بحنوٍّ أموميٍّ أخذته في حضنها غيرَ عابئةٍ برائحته، وربتتْ على كتفه وهي تقول: وماله يا حبيبي صباح ولّا ليلى، أهي كلها أوقات وبتعدي، ربنا يا ابني يتمّم لك بخير.

من فورها، قامت الأم الحنون إلى الأب العطوف فانتزعت منه الاعتراف باسم «ليل» فابتهج ابنها واستبشر، وشعر أنه على الطريق السليم لتحقيق الآمال. لكن البشارات تخدع. فأمه لم تستطع الحصول من أبيه على التصريح بالزواج من «صباح» ولا من غيرها، إلا بعدما يجد «ليل» عملًا يقتات منه.. وهنا انهارت الأم وهي تقول لزوجها

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

إن هذا الشرط تعجيزي، فالعمل نادر الفرص والشباب معظمهم عاطل، ولا يجوز تعليق الزواج على شرطٍ شبه مستحيل كهذا.

كانت جعبة الأب حاوية وليست كالمعتاد خاوية، ولذلك عاد بعظمة الفراعين العظام إلى الوراء، حتى استند بكتفيه إلى الحائط الخلفي المتساقط طلاؤه، وقال بثقةٍ لا حدود لها إن «الشغلانة» موجودة، والوظيفة متاحة وتمَّ الإعلان عنها عصر اليوم. النائبُ يريد تعيين نائبٍ. صرخت الأم فَزِعةً وهي تقول: يالهوي، تاني، كفانا نيابة.. كأنها أرادت المبالغة في الانفعال، لتذكير الأب بما جرى عندما عينوه نائبًا فكان من الويلات ما كان، حتى وقعت الفاجعة في فصل الربيع وكسّر ساقه جماعةٌ من الشباب، ومزّقوا جلبابه، فصار من يومها مُقعدًا في مدخل الدار.

ابتسم الأب بشحوبٍ وهو يقول إن تلك أُمةٌ قد خلت، والزمان الآن اختلف، فكل الذين اعترضوه سابقًا قُتلوا في الشوارع أو في الحقول أو في السجون. ولا مانع أمامهم الآن من استعادة الحال الذي كان، مادام الكل قد استكان.

قالت الأمُّ: إذا كان كده، يبقى فُرِجَتْ.. وأسرع ابنها إلى داخل البيت فبدّل جلبابه وانطلق من فوره إلى «كفر السريس» حيث يسكن النائب المشرف على الكَفر والنجوع المحيطة به، فوجده بالصدفة جالسًا فوق حطام بيتٍ متهدِّمٍ، يحدّق في الفراغ المحيط به محاولًا كالمعتاد إحصاء نسمات الهواء التي تمرُّ بالأنحاء الأربعة.. سأله

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

باستكانةٍ إن كان يطلب نائبًا له، فأكّد، وسأله باستبشارٍ عن الشروط المطلوبة للوظيفة، فأخبره بأن نائب المركز الذي يعمل هو نائبًا له، حدّد للوظيفة شرطًا واحدًا هو: المقدرة على إقرار الأمن وتحقيق الأمان للحكام، والطاعة المطلقة والأدب مع الأعلى سلطةً، والاجتهاد في سلب الأغنى لصالح الأفقر لضمان ولاء الفقراء والغوغاء، والقدرة على إحداث التغيير.. فابتسم «ليل» وصاح من فوره: سيادتك هذا شرط بسيط، وأنا أكثر شخص يناسب الوظيفة، وبالصدفة غيّرت اسمي اليوم من صابر إلى ليل!

دمعت عينُ النائب من شدة التأثر، وحمد الله على إرسال الشخص المناسب في الوقت المناسب، وأعطاه الوظيفة وجريدة النخل المحظور على غير النواب الإمساك بها. فعاد «ليل» إلى النجع منتفخ الأوداج، يؤرجح بيسراه الجريدة متفاخرًا بمنصبه الذي شغله أبوه من قبله، وهو: نائب النجع، وصاحب السلطة المطلقة. باعتباره النائب عن نائب الكفر، النائب بدوره عن نائب المركز، النائب بدوره عن نائب المديرية، النائب بدوره عن الأعلى منه.. فهو من الآن، المسئول عن الضبط والربط في النجع في إطار مسئولية نائب الكَفْر، المسئول عن ضبط الكَفْر والنجوع المحيطة، في إطار مسئوليته المستمدة من مسئولية نائب المركز، المسئول عن ضبط الناحية وربطها في إطار مسئوليته المستمدة من مسئولية نائب المديرية.. الحياة شبكة مسئوليات مستمدة من مسئوليات، والأسماك المستهدفة للصيد بالشبكة، كثيرة.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بعد ليلةٍ أمضاها متأمِّلًا في الفراغ واللاشيء، استهل «ليل» مهام منصبه في الصباح التالي باحتفالٍ مهيبٍ احتشد له سكانُ النجع جميعهم، وقلوبهم تخفق بنبضات الابتهاج والفرح.. وقف النائب «ليل» وحوله الصفوة المُبجلة، وفقًا للبروتوكول الرسمي المعمول به في مثل هذه المناسبات النادرات. عن يمينه أشيخ شيخ في النجع، وعن يساره أوفر الرجال مالًا وعيالًا، وأمامهم على الأرض جلست الطفلات البائسات اللواتي يلوحن حسب المراسم بسعف النخيل.

بدأ «النائب ليل» خطبته بالارتجال فقال إنه سيكون مباشرًا في كلامه ومحددًا، فصفّقوا. وأضاف أنه لن يلفَّ عليهم في الكلام أو يدور، فصفّقوا. وأكد لهم أن كلامه ينطلق من أنه منهم وأنهم منه، فصفّقوا. وقال إن كلامه دليل على أنه يحبهم بأكثر مما يحب نفسه، فصفّقوا.. وانتهى حفل التنصيب.

لحظة غروب شمس يومه الأول بالمنصب، تزوّج ليل صباح. ولما انفرد بها اعتذر منها عن عدم قيامه بواجبه الزوجي، نظرًا لانشغال ذهنه بالمهام الملقاة على عاتقه. فاشمأزّتْ، لكنها لم تعترض. وفي صباح يومه الثاني دعا أهل النجع لجمع النقود المخزونة في منازلهم، للإنفاق منها على مشروعات التنمية. مع وعد بردِّ أموالهم إليهم في فترةٍ محدّدة بدقةٍ، تبدأ بعد عامٍ من الآن، وتنتهي يوم القيامة. فاستجاب له كثيرٌ من الناس، وفرحت «صباح» بانفراج الضائقة المالية مما يبشِّر بانفراج الضائقة الفراشية. لكنها صُدمت في أول الليل حين اتخذّت زينتها واتخذ زوجها سبيله إلى النعاس سَرَبًا.. ولم يعتذر.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في اليوم الثالث كان أمام «ليل» مهمة عويصة، لكنه استطاع مع مجيء الغروب أن ينجزها، إذ قام بتوفيقٍ من السماء بنزع معظم ما بيد الأغنياء من أهل النجع وقام بتوزيع ما سلبه على الفقراء، فتعالت في الطرقات أصوات المعدمين سابقًا، شاكرين مهللين. وبعد انتهائه من هذه المهمة القومية، ذهب «ليل» إلى «صباح» يتمطّى فتوهّمتْ من هيئته وهو داخلٌ عليها أن الليلة ليلتها، لأن فارسها كسر عين جميع الخيول والبغال والحمير، ولا بدّ من أنه سوف يُمتع الليلة فرسه.. لكن الأماني خوادعُ.

* * *

سارت الأيام بها على ذات المنوال، بلا نوال، حتى جاء اليوم الذي انفجرت فيه «صباح» في وجه «ليل» مُتّهمةً إياه بالخيانة، كي تُوجد له ولنفسها العذر في عدم حصول المأمول. لكنه أدرك أنه لا فائدة من هذا الحوار، فانتفض واقفًا من بعد نطاعة النُّعاس المفتعل، وخرج من البيت مُغاضبًا أو مُظهرًا الغضب، بعدما زعق فيها بكل ما فيه من كذبٍ قائلًا: أنا مُش عاوز كلام في الموضوع ده تاني.

* * *

بين أزقّة النجع صاح المنادي بأن «النائب ليل» يدعو الجميع للاجتماع في مدخل القرية، ولا عذر لمن يقعد عن تلبية الدعوة.. تحت شمس الظهيرة، جلس الجميعُ ساكنين وتصادف أن جلست «صباح» بجوار جدَّتها العجوز اليابسة كعرجونٍ قديم، ومن تحت ظل الجريد

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اليابس تحدث «ليل» للحاضرين، بحزم، مبشرًا لهم بأنه وجد حلًّا لمشكلة جفاف الترعة وانعدام الماء اللازم للري. قال إن كل رجل عليه أن يغرس نبتة أمام منزله، وينكّد على زوجته مثلما تنكّد دومًا عليه، حتى يجعلها تبكي في قارورةٍ بالقدر الكافي لريِّ النبتة. فإذا التزمنا جميعًا بهذا المشروع العظيم، فسوف تمتلئ القرية بعد سنوات قليلة بالأشجار، فيأكل الجميعُ من الثمار.

عندئذٍ، وبعدما بلغ سيلُ «ليل» الزُّبى، همست الجدَّةُ العرجونيةُ لحفيدتها صباح، قائلة لها بلسان النصح، ما خلاصته: في الأمسيات لا تتعبي نفسك معه، لأنه لا فائدة منه، فهو عنّين. بكسر العين.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المجموعة الثانية

فضلُ السراب

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ هجيرُ الهجرة ◊

قلتُ في نفسي، وقد بلغ بي الإعياءُ مداه، إنه لا بأس بهذه الغرفة المفردة، فهي نعم المأوى والمحطُّ المريح. صحيحٌ أن جدرانها متقشّرة الطلاء، والطوب يطل من زواياها ليذكِّر الناظرين بأنه كان سابقًا مستترًا خلف الحجاب الأسمنتي الرقيق، فتحرَّر. وصحيحٌ أن بابها لا يحكم الإغلاق، وحلقه يتجافى عن الحائط الممسك به على هون. لكن القطط المتجوّلة لن تقدر على المرور منه، ولن تجرؤ الفئران على السعي فوق سطح العمارة ما دامت هذه القطط تسعى.

صباح اليوم، ودعتني أمي بدموعٍ صامتات مع أنني أخرجُ من جوارها بمتاعي القليل، بلا نية في العودة. بل عقدتُ العزم على عدم الرجوع يومًا، ولو لزيارة الكفر. لعلها أدركت ذلك بقلب الأم، لكنها لم تفصح عنه بلسان الثكلى. عمومًا، لا أظنها ستجد الفرصة أو الوقت كي تفتقدني، فبقيةُ إخوتي العشرة سوف يشغلونها عما عداهم، فهي لهم الأم والأب وسائر الأقارب.

خرجتُ من الكَفْر بكل ما أملكه من الحياة: الحقيبة القديمة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المحشورة فيها قطع ملابسي، ومصحفي، والرغيفان. خرجت بلا أملٍ، ولا شجونٍ، ولا حسرةٍ على سنواتي العشرين التي أمضيتها هنا من دون هدفٍ أو أحلام، ومن دون إتمام الأمل بالعثور على عمل. وكيف يمكن إيجاد عملٍ في «كَفْر» مهمل، لا أعمال فيه ولا أماني. سعيتُ عبثًا لمدة عام، فلم أجد وظيفة بدبلوم الصنايع الذي حصلت عليه بشق الأنفس، فلم يبق أمامي سوى الهجرة من الكفر إلى هجير القاهرة، لأندس في وسط الناس الذين يجدون كل يوم ما يأكلونه. ويقال إنهم يهنأون بمتع كثيرة لا يعرفها أهل الكفور والمراكز، وعواصم المحافظات المتلاصقة بقلب الدلتا وأطرافها.

ظهر اليوم وصلتُ إلى العنوان الذي أعطانيه عمي، القعيد، فالتقيتُ رفيقَ صباه «الأسطى حمادة» كهربائي السيارات، الذي أسكنني هذه الغرفة القائمة فوق سطح البيت وأوصاني بالنزول غدًا مبكرًا، لأبدأ أول أيام عملي في ورشته حيث سأتعلم صنعةً، آكل منها الشهد. هكذا قال لي بثقةٍ، فصدَّقتُ.

في الغرفة كهرباءُ مسروقةٌ من عمود النور القريب، بسلكٍ قديم، تُضيء لمبةً واحدة تتأرجح إذا فتح الباب. وفيها صنبورُ ماء شحيح، يسحُّ في الليل ويجفُّ في النهار لارتفاع طوابق البيت الثلاثة، وتعاليها على قوة اندفاع الماء. وفيها دكةٌ متآكلةُ الأطراف، مُلقى عليها بطانية قديمة، تغري بالنوم.. ولهذا قلتُ في نفسي وقد بلغ الإعياءُ مداه، إنه لا بأس بهذه الغرفة المفردة، فهي نعم المأوى والمحطُّ المريح.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ليلُ القاهرة الدافئ يُخمدُ الأنفاس المنهكة بعد نهارٍ هارٍ، ويبقى مترقبًا يومًا جديدًا لن يكون فيه غير ما كان بالأمسين، القريب والبعيد. يوم وصولي إلى «الأسطى حمادة» وقبل صعودي إلى الغرفة، بقيتُ في الورشة وقتًا تملؤه الحيرة من كثرة الناس والمشاهد وطريقة الكلام. الصنايعي المعاون للأسطى حمادة، لاسعٌ، وينادونه باسم عجيب «أبلاتين»، وهو لا يتكلم كأهل الكَفْر، بسذاجةٍ ويُسر. سألته عن اسمه الأصلي فقال إنه نسيه منذ زمن، وسألته عما يجب أن أفعله غدًا في الورشة من مهام فقال إن الأسطى سيخبرني، وسألته عن الفترة التي يمكنني فيها التقاط الصنعة فقال إن الله هو المسهِّل لكل الأمور.

في يومي الأول، الشبيه بالأخير، صحوتُ في الصباح الباكر نشطًا وهبطتُ الدَّرَج بهمةٍ، طارحًا عني كل الهموم.. بدأتُ زماني القاهريَّ بكنس الورشة ومسح بلاطها المتسخ بماءٍ وفيرٍ، حتى كاد يلمع، وقد اندهش «أبلاتين» حين جاء بعد انتهائي من أعمال النظافة، بساعتين، وأجال وجهه في المكان وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. سألته عن سر تبسُّمه واندهاشه، فأخبرني بأنه فعل في يومه الأول ما فعلته اليوم، ثم أدرك بعد سنين أن هذا التنظيف لا طائل من ورائه، لأن الورشة من طبيعتها أنها تتسخ. قلتُ من فوري إنني سأنظفها كل يوم صباحًا، فهزَّ رأسه وهو يقول إنه أيضًا نوى ذلك في أول يوم عمل فيه بالورشة، قبل عشرة أعوام.

يومها جاء الأسطى ساعة أذان الظهر، فأسعده أنني نظفت

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الورشة. عيناه قالتا ذلك. جلس الأسطى يحتسي شايه، وينتظر أول سيارة تشكو من عطل كهربائي، أو عطب يحتاج إصلاحًا.. ولم يطل انتظاره.

في نهاية يومي الأول عرفت أشياء كثيرات ظننتها مذهلة، ثم عرفت أن معظم الناس تعرفها. منها أن ضعف الضوء في مصابيح السيارات، يصلحه تغيير اللمبة المسماة «بَرَادوسَة» أو ضبط الأزرار الطويلة المسماة «الكتاوات» أو شحن بطارية السيارة. أو مفاجأة صاحبها بأنها تحتاج بطارية جديدة، وهي بالطبع مفاجأة غير سارة له.

وعرفت أن الأسطى يأتي لنا ساعة العصر بثلاث علب من الكشري، وهو خليط لذيذ من أشياء عديدة. كنت أسمع في الكفر أن القاهريين يأكلونه كل يوم. وعرفت أن الورشة تنغلق في التاسعة مساءً، ما لم تكن هناك سيارة تحت الإصلاح. وأن «أبلاتين» هو الذي يقوم بكل الإصلاحات، والأسطى هو الذي يأخذ من الزبائن المال المطلوب. سائقو التاكسي هم أراذل الزبائن. فهم يفهمون عادةً سبب العطب في سياراتهم ويُفاوضون في أجرة الإصلاح، أما أصحاب السيارات الملاكي فلأنهم يحتارون في سبب أعطالهم، فهم يفرحون بالإصلاح ويدفعون الأجرة بلا لجاج.. وعرفتُ بعد أيام أن اكتساب الصنعة يلزمه صبرٌ وأعوامٌ طوال، وأن «أبلاتين» كان يحلم منذ سنوات بالسفر للعمل في إحدى دول الخليج، وعاقه عن ذلك أن صنعته لم تعد ذات نفع هناك. وهو الآن يسعى للهجرة إلى إيطاليا مثلما فعل صديقه القديم الذي ذهب إلى هناك ولم يعد من يومها،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لأنه وجد عملًا في محل «بيتزا» ووجد فتاة تعيش بغرفته دون أن تأخذ مهرًا، ووجد شيئًا عجيبًا: احترام الناس له من دون سبب.. وعرفتُ بعد شهور أن الأسطى يعيش منذ طلق امرأته، في تعاسةٍ جعلته لا يفكر في الزواج مجددًا.. وهو يحلم منذ سنوات بالعودة إلى قريته الأولى التي كان أبوه يعمل فيها مزارعًا، وكان في صغره يعاونه، لكن القرية لم تعد تزرع. لكنه ما زال يحلم بالهجرة من القاهرة إلى الريف، مثلما فعل صاحب الورشة السابق. رحمه الله.

في جوف الليالي القاهرية التي تتالت متسارعةً، أدركتُ أنني مثل بقية أهلها، سوف أُسرف في الحلم حتى أفقد الذاكرة. فأسرفتُ، وحلمتُ بأنني سوف أتقن الصنعة بعد عشرة أعوام، وسوف أتمنى السفر إلى الخليج وسيعوقني أن صنعتي لم تعد ذات نفع هناك، وبالتالي، سوف أصبو إلى الهجرة إلى إيطاليا عساني أجد ما وجده ذاك الذي ذهب إلى هناك ولم يعد.. وبعد عشرين سنة، سوف أمتلك هذه الورشة وأصير أسطى.. وسأطلّق زوجتي التي لم أرها بعد، وسأعيش في تعاسةٍ سوف تمنعني من الزواج مجددًا، سوف أفكّر في العودة إلى الكفر الذي اختفى من حوله الاخضرارُ، وأظل أتمنى الهجرة من القاهرة إلى ريفٍ لم يعد موجودًا إلا في الخيال.

* * *

وها هي السنوات العشرون قد مرَّتْ، سريعًا، فكأنني جئتُ إلى القاهرة قبل يومٍ أو بعض يوم. ولا زلتُ أذكرُ ليلتي الأولى بالغرفة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

التي سكنت فيها فوق سطح البيت القديم، فكانت لي نعم المأوى والمحطّ المريح. ولا زلتُ أذكُر الأسطى «حمادة» رحمه الله، مثلما رأيته لأول مرة. ولا زلت أشعر بدفء الليالي القاهرية المسخنة بأنفاس ملايين النائمين في مبانٍ متلاصقة، والمثخنة بوخزات النهار الهاري.. بعد مرور السنوات العشرين، فهمتُ أن القاهرة مأوى للمهاجرين إليها والمهاجرين منها. فهم يقيمون فيها، وفيها لا يقيَّمون وبها لا يقومون.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ وَهجُ السنابل ◊

بهمّةٍ عالية، واصلَ السيرَ فجرًا بعدما انتبه من نومه ممتلئًا بحلمه اليومي البديع، المفعم بالأمل والألوان. منذ زمنٍ مديد، يرى الحُلم ذاته في آخر الليل: سنابل قمحٍ مكتملة تتوج عيدان سيقانه الذهبية الرشيقة، المتمايلة مع الهواء الطاهر الآتي من الصحراوات المتتالية المحيطة بالحقل، وقد اكتست السنابلُ والسيقانُ بحمرة شمس العصر الذهبية الذاهبة إلى غروبها.. لا شيء أبهج وأهنأ من الأحلام الناعمة، البريئة من تشويش الصحو.

كالمعتاد، غرس القلمَ الجافَّ حبرُه في الرمال المرطّبة بنسمات ليلته الفائتة، فامتد خطُّ الظل الذي جعل اللهُ الشمسَ عليه دليلًا يرشده إلى جهة الشرق.. نظر في الفراغ الرملي المحيط به، بأسىً عابر، وسار متوجهًا إلى الموضع الطالعة منه الشمس، من غير شكٍّ في صحة الاتجاه. في أوائل النهار وأواخره، لا يشك في اتجاهه، أما عند انتصاف الظهيرة فإن الظلَّ يختبئ تحته، فتحوّم حوله الحيرةُ ولا يغدو مُتيقّنًا من الوجهة الشرقية التي هو مولّيها. كان حل هذه المشكلة يسيرًا، وقد لجأ إليه بعد أيام معدودات من خروجه النهائي من قريته طالبًا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الخلاص؛ إذ هداه عقله إلى ضرورة أن يرتاح عند الظهيرة، ويقعد مكانه أيًّا كان هذا المكان، فإذا مالت الشمس من خلفه سار مجددًا على استقامة ظله الممتد أمامه، وكان قبل الظهيرة يمتد خلفه.

متى ينتهي هذا المسير اليومي؟ عند تمام الغروب يسأل نفسه ولا يجد الإجابة، فينام في موضعه ثم يصحو مع الفجر التالي، ليواصل بهمّةٍ عالية سيره الممتلئ بحلمه اليومي البديع، المفعم بالأمل والألوان وبأشياء أخرى متداخلة لا تستطيع اللغة التعبير عنها.

* * *

في بدء خروجه من القرية، ظلَّ عدة أسابيع يعد خطاه وأيامه. ثم كفَّ عن العدّ بعدما استطال به الحال، وتوالت السنون عليه من دون أيّ اختلاف. والعدُّ يكون للمختلف. لا بأس، سيترك العدد والمعدودات ويسبح في النهارات فوق صفحة الرمال، التي لا بد لها أن تقوده في خاتمة المطاف إلى مبتغاه: الشرق.

العجيب في أمره أنه من يوم خروجه من القرية، لم يمسسه الحنينُ إليها ولو لحظة واحدة طيلة هذا الزمن المديد. وكان يعلّل ذلك، بأن الإنسان إذا خرج إلى النور لا يحق له الحنين إلى الظلام ولا يعقل منه. وقد امتلأ بأسباب هذا الخروج الهروبي، وأيقن أن مكانه ليس ما كان فيه، عندما أتمّ العشرين سنة الحزينة من عمره. كم بلغ من العمر الآن؟ لا يهمّ، فالأهمُّ أنه لم يعد منذ خروجه، مثلما كان قبل الخروج: ميتًا وهو حي.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

القرية التي هجرها قديمًا، لم يسكن فيها يومًا إلا أسرتُه التي قد يُعدُّ أفرادُها بالمئات. فإذا كان العدُّ لا يصحّ إلا لما اختلف، وإذا كان حاصل ضرب الواحد في واحد لا يعطي إلا واحدًا، فإن القرية على كثرة مَنْ فيها، لا يسكنها إلا شخصٌ واحدٌ متعدّدُ الوجوه من خارجه فقط، أما من حيث الجوهر فكلهم شخصٌ واحد. يُقال للبعض منه إنهم رجال كالنساء، وللبعض الآخر منه نساء كالرجال. ويُوصف البعض منه بأنهم عجائز وشيوخ كالصبايا والصبيان، والبعض الآخر يوصف بأنهم صبايا كالعجائز وصبيان كالشيوخ.. كلهم هرموا منذ الصغر، ثم تصابوا حين بلغوا الكبر. وكلهم قانعون بقانون المسموح والمحظور، وراضون، ولا يحلمون.

المسموحات في القرية هي تحديدًا: الضحك علانية، الرقص سرًّا، الأكل والتناسل إذا سمحَ الحالُ. أما الممنوعُ فهو كل ما كان بخلاف المسموح به ومن وراء الممنوع هناك المحظورُ، والمُستهجنُ، والممجوج. وهناك الكبائرُ والمُوبقاتُ التي لن يتهاون أهل القرية في معاقبة مقترفها بأهوال العقوبات التي لم يحدث أن طُبّقت على أحد، فهذه الدواهي المسماة الكبائر والموبقات، لن يفكّر في الإتيان بها إلا عُتاةُ المعتوهين.. منها، والعياذُ بالله: الأحلامُ. أو بالأحرى حكاية الأحلام، والتصريح بها للآخرين، والبحث عن تأويل لها.. ومنها الرفضُ، أو بالأحرى إعلان التذمُّر من أي أمرٍ مستقرٍّ بالقرية، والقريةُ أمورُها كلُّها مستقرةٌ راسخةٌ منذ زمنٍ سحيق.. ومنها الاختلافُ، أو

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بالأحرى الظنُّ بأن الناس السواسية، غير سواسية.. ومنها التجديدُ، أو بالأحرى الشكُّ في أنه كان بالإمكان، أبدع مما كان.

* * *

بدأ شعوره الخانق بالخطر، في زمن أيام طفولته. فقد أدرك مبكرًا أنه مؤهَّل بطبيعته الجامحة، لارتكاب الكبائر والموبقات. وقد ظنَّ أول الأمر أن حل مأساته سهلٌ، ويتلخص في كلمة واحدة هي بلفظ فصيح «المماثلة»، وباللفظ العامي الذي جعله أهل القرية شعارًا منذ الأزمنة القديمة «اللمة». واتّقاءً للخطر المُحدق به، كان دومًا مع أهل القرية، وبقربهم. حيثما كانوا، وأينما كانوا، وأيًّا ما كان ما يتكلمون فيه. وهم على كل حال لهم حديثٌ واحدٌ لا يتعدونه إلى غيره، ومكانٌ وحيدٌ هو قريتهم. فهم لا يخرجون منها، ولا يرون في مرتكب كبيرة «التفكير في الخروج» إلا مارقًا لم يحمد الله على عطاياه، ولا يستحق بالتالي إلا الطرد من القرية، والدفع به مذمومًا مدحورًا إلى الفراغ المحيط. كي يأمن الأصحاء خطر الذي مَرِضَ.

وعلى سبيل المماثلة، ظلَّ يحرص في زمن مراهقته على الدخول في «اللمة» لطمأنة الذين حوله، وتهدئة خواطرهم، فكان يضحك إذا ضحكوا فكشفوا عن بؤس أسنانهم وشناعة منظرها، ويتخاجل أمامهم من فورة الضحك، فيغطي بكفه فمه. كان بذلك يصيب بحجر واحدٍ عصافير كثيرة: أن يخفي عنهم نصوع أسنانه المثير للريبة، وأن يثبت لهم أنه مثلهم يضحك حيث يجب البكاء، وأن يدفع عنه أيَّ اتهامٍ محتملٍ بعدم الالتزام بشعار القرية.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

هكذا عاش بينهم حتى أتمَّ العشرين من عمره، يأكل ما يأكله الأهل من طعام عطن، وينام طيلة الليل ومعظم النهار ليرتاح من أوجاع الهجوع، ولا يشكو من بيئة القرية الموبوءة وأرضها السبخة المواحة بأشنع الروائح. ومهما شنعت الرائحة، فإنها لا تُشَم إذا استدامت. وكان يتكلم بركاكة الذين حوله، ولا يطيل التحدث فيما لا يصح إطالة الكلام فيه. يعني في معظم الأمور

* * *

صارت أيامه في القرية على هون محتمل، غير أن نظرة الريبة ظلت تتزايد في عيون المحيطين به، رويدًا، حتى جاء يوم مولده المتمم أعوامه العشرين. إذ انقلب حالُه بعد حلمٍ رآه، ولم يفهمه في حينه. رأى نفسه وقد سرى خارج القرية، وسار وحيدًا تحت ستر الليل حتى وصل إلى أرض خضراء تجاورها بحيرة، فحرثَ الأرض وكَفَرَ فيها حبوبَ القمح، ثم سقاها فتطاولتِ السيقانُ الخضراءُ وتوَّجتها السنابلُ، ولما أشرقتِ الشمسُ صار حقلُ القمح بلون الذهب البُندقي البرّاق.

ونظرًا لاضطرابه، بسبب جرأة الحُلم، فقد التزم الحرص في الصباح التالي ولم يسمح لأحد بأن يلمح أثر حُلمه على ملامحه، واجتهد في ذلك بقدر مستطاعه. لكن حلمه أبَى أن يستتر أثرُه أو يخفى، فقد قام من نومته الحالمة فوجد وجهه متورّد اللون، ممتلئًا بوهجٍ غير معهودٍ من مثله، وغير مقبولٍ في القرية.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سكن في أول النهار واستعصم بفرش نومته، كيلا يراه أحدٌ. لكن القلق أحاط به عند الظهيرة، فخرج يتنمَّس آملًا أن يدفع عنه ريب الاحتجاب وتوجُّس الانفراد. وليته ما خرج. فقد راحوا يسألونه في الدروب والعَرَصات عمّا ألمَّ به، فأنكر أولًا، لكنه انهار في خاتمة اليوم، لأن أثر الحُلم لم يعد قابلًا لإخفاءٍ أو إنكار. فقد صار يمشي منتصب القامة، لامع العينين، ناصع البشرة. وهذا عند سكان القرية من العجب العُجاب. ظل طيلة النهار يجاهد في الإجابة عن أسئلتهم المتوجسة، ساعيًا لإقناعهم بأنه قد يكون مريضًا بداء غير معروف، وبأنه يرى هذا الاختلاف عَرَضًا سوف يزول سريعًا في المساء، وبأنه في الغد سيكون طبيعيًّا مثل الجميع، غبيًّا ومُصفرَّ الوجه ومقوَّسَ الظهر. أدرك مع اقتراب الغروب أنه لا فائدة من تعليلاته غير المقنعة، وأنه هالكٌ لا محالة، ثم انحسم الأمر واحتدم لحظةَ صاح مُلتح مُتصابٍ بأنه لا بد من اجتماعٍ عاجلٍ للنظر في أمر ذاك الذي اختلف حالُه، وأضحى مُريبًا. وأضاف أن عليهم سرعة التحرُّك قبل أن يستفحل الخطر ويصاب آخرون بهذه العدوى. اجتمعوا حوله في ساحة القرية، وصخبوا بالزعيق لحظة الغروب ثم صرخ واحدٌ من المتشابهين المجتمعين قائلًا إنهم أطالوا الكلام في هذا الشأن، والحلُّ واضحٌ يسيرٌ: دفن هذا الذي فذَّ وخرج عن حال عموم الناس وحلم، في طينٍ لازبٍ. وهو حي. وجاءت من أقصى القرية امرأةٌ تسعى، قالت: لا بأس إن استعملوا الرأفة وطردوه من القرية، ليهلك المختلفُ وحده في الفراغ المحيط، فيأمن الناس شره. أفسحوا له ممرًّا،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فمرّ، وهمَّ الخطو متباعدًا حتى جنَّ عليه الليلُ وهو مندفعٌ عن القرية إلى جهة اللاشيء.

ما كانت له غاية، إلا الابتعاد بقدر الإمكان. فلما انقضى الليل بطوله أو كاد، وما عاد يسمع من حوله إلا صوتَ الهواء، ولم يَرَ غير ظلام الليلة الغائمة. اعتقد أنه ابتعد بما يسمح له بشيء من الطمأنينة والنوم، فرأى حلمه البديع وهو مرتاح، وغير مرعوبٍ من القرية الظالم أهلُها.

* * *

في الشهور الأولى من عامه الحادي والعشرين، كان يسير على غير هدى، فهو كحجر المقلاع الذي لا اتجاه له. وكان يقتات بما يجده في طريقه الصحراوي غير الممهّد، غير المطروق، غير المأمون. حتى أتى عليه اليوم الذي سطعت فيه الشمس من فوقه بأقوى من المعتاد، فأوى إلى ظلّ شجرةِ صبارٍ مشوّكةِ الأغصان، تحتها أجمةٌ مُصفرّةُ الاخضرار يشتبك فيها متسلّقُ النباتات البرية مع عيدان الحلفا، ويؤطّرها النجيلُ النحيلُ.. جلس ليستريح ومضغ بعضًا من الأوراق الخضراء، وروى ظمأه بمصّ جذور النبات، ثم غفا حتى صحا ساعة العصر. عندما تهيّأ لاستكمال المسير لمح على تربة الدغل الفقير وريقةً، فأحبَّ قبل المفارقة أن يعرف المكتوب فيها.

بحرص، أزاح الأشواك والأغصان الجافة المتكسرة، والأخرى اللينة الملتفّة حول بعضها البعض، حتى انكشف له الموضع الملقاة فيه

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الوريقة. قرأ ما فيها، فوجد أنها رسالةٌ من مختلفٍ سابقٍ، مرّ من هنا قبل زمن بعيد، وترك له هاتين الكلمتين المكتوبتين بالخط القديم: سِرْ شرقًا.. من يومها وهو يتجه شرقًا، ويجتهد في مسيره اليومي. وقد كرّت عليه السنون حتى انحنت قامته وتباطأ خطوه، ولم يصل بعد. ولن يصل أبدًا، لأن الأرض كرة.. وكل شرقٍ غربٌ.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ واجبٌ مفروض ◊

هبَّ من نوم الظهيرة في موعده اليومي المعتاد، يعني في تمام الساعة الخامسة وخمس وخمسين دقيقة، عصرًا. ومثلما يحدث كل مرة، مرّت عليه هنيهةٌ لا تزيد مدتها عن ثانيةٍ واحدةٍ أو أقلّ، شعر خلالها بإنسانيته وبأنه يستحق الاحترام. لكن هذا الإحساس المفعم بالعبق السحري، سرعان ما تبدَّد كالمعتاد مع استيقاظ ذاكرته، وبالتالي إدراكه الواقعي لحقيقة ذاته المشتركة مع بقية الذوات، المختلفين بحكم القَدَر عن أبناء الذوات وذوي القَدْر.. الآن سوف يحاول خلال الدقائق التاليات، المستحيل الذي يحاوله دومًا بلا جدوى، وسيبقى مستلقيًا على سريره غير المريح متشبثًا بأذيال النوم، عساه يغرق ثانيةً في النعاس ثم يستفيق مجددًا فينعُم بهذه الهنيهة المبهجة التي تبرقُ فجأةً فور صحوه، مفعمة بالعبق السحري، وتختفي فور انتباهه لها.

حاول كثيرًا، لكن هيهات، فهذه اللحظة النادرة لا تأتي إلا مرةً واحدة في اليوم، إن أتت. ففي بعض الأيام تصحو ذاكرته قبله، فلا يشعر عند استيقاظه إلا بأحواله الفعلية التي ملخصُها وتفصيلُها أنه

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

شخصٌ عاديٌّ كبقية العاديين المحرومين من الأحلام، يعمل موظفًا لا يعمل كبقية الملايين الثمانية، الذين تشكو البلاد من وجودهم همسًا، وجهرًا تتمنَّى سفرهم للخارج عساهم يفلحون هناك، ويحوِّلون لوطنهم الأموال. تحقيقًا للقواعد العليا، فوق القانونية، وهي «الماجنا كارتا» المحلية غير المكتوبة، التي صاغها قبل ابتداء التاريخ المعروف فرعونٌ غابرٌ، كان يتميَّز ببلاغةٍ فادحةٍ ظهرت عبر عباراتٍ مفصحةٍ غيرِ فصيحة، عبَّر بها عن تلك الأصول التليدة البليدة التي صارت ناموسًا يفتك القانون بمن يُشكِّك في حرفٍ منه. فمن تلك الأصول الرواسخ، النواسخ لما عداها، قولهم: إسعدُه وابعدُه.. اللي ييجي منه، أكيد أحسن منه.. الحل بسيط، بس المواطن عبيط.. سافر مع السلامة، بَدَل ما تقعد هنا للندامة.. مفيش داعي تعاند، وفي المُرِّ تفضل يا بارد قاعد.. وسَّع يا حلو للحبايب، وبلاش تبقى رِزِل وخايب.. الرزق للغايب، والحاضر مالوش نايب.

* * *

كحيوان الكسلان، قام متثاقلًا من سريره في تمام الساعة السادسة مساءً. واستعدَّ بغير حماسٍ للذهاب لأداء الواجب اليومي المفروض كلَّ مساء، فوقف بملابسه الداخلية أمام خزانة الملابس ليختار ما يناسب التعزية في المتوفاة التي تموت كلَّ يوم في النهار فيتبادلون عزاءها في المساء.. عزَّى فيها مراتٍ لا حصر لها، ولم يتلق فيها العزاء من قبل، قط. وسمع عنها منذ صغره آلاف الحكايات، لكنه لم يدرك زمانها ولم يرها أثناء حياتها، قط. بل لم يتأكَّد يومًا من صحة الاسم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الذي كانت المرحومة تحمله، إذ يزعم بعضهم أن اسمها كان «بهية» ولكن يزعم بعضهم الآخر أنه تصحيفٌ وتزييف، لأن اسمها الأصلي الصحيح: بهانة.

عمومًا، الاسم لا يهم في شيء وما عاد يصحّ السؤال عنه الآن، لأن أداء الواجب مفروضٌ بصرف النظر عن صحة اسم الميت، وعن جدوى وجوده الذي كان ثم انطوى. ومادام الناس يعزُّون فيها من قديم الأزل، يوميًّا، فلا بد من أنها كانت سابقًا حيةً وتحمل اسمًا كبقية الأحياء.. ثم صارت ذكرى واجبة الإحياء يوميًّا.

نبش خزانة ملابسه وهو مُتيقنٌ من أن ربطة العنق السوداء، ملدسّةٌ منذ عودته من عزاء الأمس بين طيّات الملابس والملاءات. وإلا فأين ستكون؟ اجتهد في البحث مراتٍ متتاليات، لكن الوقت الطويل ضاع منه بلا طائل فجلس مُحبطًا على حافة سريره وراح يهدّئ من غيظه، باستجلاب الأفكار المخفِّفات من شعوره بانعدام المعنى. حدّث نفسه بأنه لا داعي لأيِّ قلق، فلا يزال الوقت مبكرًا على انتهاء موعد العزاء اليومي الممِلّ، وسيبقى السرادق المسمى «الصوان» منصوبًا كالمعتاد حتى تمام الساعة العاشرة.. هناك إذن فسحةٌ لالتقاط الأنفاس، ثم العودة لمزيدٍ من التفتيش الدقيق. وحتى لو فشلت محاولة البحث الأخيرة التي سيقوم بها، فسوف يذهب للعزاء بدون ربطة العنق، فهي في الأيام الحالية ليست شرطًا واجبًا لأداء واجب العزاء، والواجبُ الأساسيُّ لا يصحّ أن يحول دونه واجبٌ فرعيٌّ.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سأل نفسه هامسًا: لماذا يسمون المواساة في الوفاة واجبًا، وأما المشاركة في الأفراح فهي عندهم: المجاملة. هل هذا تأكيدٌ لأهمية الأولى، وتفاهة الأخرى. أم هو تشديدٌ على أن القيام بالتعزية أمرٌ مفروضٌ لا مفر منه، أما الأفراح فهي اختيارية ولا عقوبات على مَنْ أهملها؟ وكما هو متوقع عند استسلام العقول للتساؤل، بدلًا من الطاعة والقبول غير المشروط للإجابات، وقع في المحظور فثارت الشكوكُ بصدره وتطرّقتْ إلى نفسه الوساوسُ الإبليسية والنزغاتُ الشيطانية المؤدية حسبما يؤكّدون، إلى المهالك. وبطبيعة الحال، توالدت عن الأسئلةِ الأسئلةُ، فخرق جدار الطاعة العمياء وتجرّأ على طرح السؤال المحرّم: ماذا يحدث لو أهمل الليلة الذهاب للتعزية، وتعلّل للناس بأيِّ سببٍ مانع.

عند مواجهة نفسه بهذا السؤال، ارتجف قلبه فزعًا وصاح بداخله صوتٌ مُرجفٌ لكلِّ مُرجفٍ، فتردَّد الصدى بأنحاء صدره محذِّرًا له وزاعقًا فيه: لا تهرطقْ أيها الجاهل بحقائق الأمور، وعُد بسرعة إلى الحظيرة، فإن فكرة ترك الواجب خطيرة.. ارتاع، وكاد يبكي وهو يعضُّ بنان الندم، وعندئذٍ عاد عقله إلى العمل من بعد غياب، فثاب إلى الرشد وأدرك أن تلك الفكرة الإلحادية الطارئة هي بالقطع، من وحي الكتكوت الكافر الذي باع روحه للشيطان.

قرّر ألا يترك رأسه نهبًا لنقرات الكتكوت، واستعاد حرارة الإيمان بالإرشادات التي شبَّ عليها وشاب، فصاح صارخًا: لن أستسلم لوسوسة كتكوتٍ خبيث، تحالف ضدي مع إبليس، وكان متحالفًا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

من قبل مع أهريمن ومع زبانية هادس، لا وألف لا، لن أكون يومًا لقمة سائغة للغواية، فالغايةُ من حياتي هي العودة بالنهاية إلى البداية.. وعندئذٍ ارتاح، وراح يتلو ترنيمة الخلاص من الخطايا، ويستشعر حلاوة حروف كلماتها الآسرة: أنا مطيع وأنت مطيع، فنحن محفوظون من الضلال الفظيع، وبمنأى عن المصير المريع. السلامة السلامة، في الاستقامة على سبيل الطاعة، والبقاء مندسًّا وسط الجماعة، والابتعاد عن الأسئلة والنطاعة.

هدأت نفسه فظهرت له الحقيقة الدامغة والحجة البالغة التي طالما آمن بها أهله من قبله، وحفرها القدماء على صخور الصحراء «كُن مع بقية الناس، تأمن الحيرة والالتباس».. وأدرك أن في مخالفة المعتاد مخاطرةٌ وإبحارٌ ضد التيار، فإن تخلَّف عن واجب العزاء فسوف يُلام لم تحلَّ به الآلام، أو يُضطر إلى سَوْق الاعتذارت وإبداء الندم على فوات فرصة أداء الواجب اليومي المفروض، وربما يُرفض اعتذاره ولا يُقبل ندمُه فيرمونه بالتهم الخطيرة: إنكار ما هو مشهور، والتفكير الحرّ، والاستهانة بقواعد الاستكانة. فيُسجنُ ويُستهجنُ ويُهجر ويحتقره الآخرون ولا يأتونه مُعزِّين حين تدور الدائرة فتأتي الليلة التي يقف فيها على حافة السرادق، كي يتلقّى العزاء ممن كانوا يتلقّون منه العزاء.

لكن الكتكوت لم يرحمه، وعاد ينقر رأسه بالأفكار ويزيِّن له الإنكار. فأوحى إليه بأنه سوف يفلتُ بفعلته من العقاب، لأنه لم يتخلَّف يومًا عن العزاء، ومشهورٌ عنه الطاعة والولاء. وحتى إن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

حامت حوله الشكوك، فأثارت ضده النفوس، فسوف يستقيم على الدرب في مقبل الأيام ويكون بعيدًا عن أي اتهام.. شعر بالقشعريرة الثورية تدغدغ قاع دماغه، والْتذَّ بهذا الشعور فحدّث نفسه بأن البقاء في البيت أفضل فعلًا، خصوصًا أن لديه ما يجب أن يقوم به هنا من أعمالٍ أهم من التعزية. منها تسليك الحوض المسدود منذ شهور، وغسيل الصحن الوحيد الذي يأكل فيه، وترتيب خزانة ملابسه.. وغير ذلك من المهام الحياتية العظام.

* * *

سمع دقات ساعته الحائطية المعلّقة في جدار البيت، فثار في نفسه القلق لبلوغها التاسعة مساءً، وهمَّ ليرتدي ما يناسب المناسبة من الملابس السوداء، ولا بأس إن أهمل الليلة ارتداء ربطة العنق المفقودة.. لكنه حين قام واقفًا، شعر بدوارٍ خفيفٍ يلف رأسه فعاود القعود وهصر رأسه بيديه كي يستفيق. وفجأة صدمته فكرةٌ جامحة، فرفع حاجبيه مندهشًا من اكتشافه أن التعزية أصلًا، لا معنى لها. فهي في حقيقة أمرها لا تكون للميت، فمعظم المعزِّين لا يعرفون الميت الذي يعزون فيه، وحتى إن كانوا يعرفونه فما الذي سوف يستفيده من عزائهم.

باح لنفسه بأن التعزية عارية من المعنى، وكذلك الكلمات المستعملة عادة للعزاء. وإلا فما معنى قول أحدهم لأحدهم «البقية في حياتك» أليس هذا نوعٌ من الضلال المبين، لأنه يتضمن أن الميت

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لم يستوفِ أجله وترك منه بقية. والأعجب، أن الرد المعتاد على تلك العبارة المضللة، هو «حياتك الباقية» وهو ما يناقض العبارة البديلة لها: البقاء لله.. وهي عبارةٌ ناقصة المعنى، وكمالها يجب أن يكون: البقاء لله والفناء للبشر.

ومادام الناس جميعهم فانون، فما معنى قول بعضهم لبعضهم الآخر: حياتك الباقية.. ومادام الموت نقيض الحياة، فما معنى قول بعضهم لبعضهم الآخر: تعيش وتفتكر! كأنه يرجو له العيش والحياة من أجل تذكُّر الموت والموتى. والأغرب من كل ما سبق، قولهم: الموت حق. لأنه يعني أن الحياة باطل، والحق يجب أن يُتّبع كما يجب أن يُجتنب الباطل. ولهذا يحتفي الأحياءُ بالموتى، مع أن الأموات لا يكترثون لهؤلاء الأحياء الذين يُحيون ذكرى الميت في اليوم الأربعين، يوم إتمام عملية التحنيط. وقد نسوا أسرار التحنيط وعلومه، وحافظوا على موعد انتهائه ليحتفلوا ويحتفوا بما صاروا يجهلون. ولم يكفهم هذا، فصاروا يُحيون الذكرى السنوية للميت كل عام، مع أنهم في دار الباطل، وهو في دار الحق.. كيف يصحُّ احتفاء الفاني الباطل بالحق الباقي؟!

ومن مبهمات التعبيرات الغامضات، عبارتهم المعروفة التي تقال عقب التعزيات: «لا أراكم الله مكروهًا في عزيزٍ لديكم». فكأنها أمنيةٌ صريحة بأن يموت السامع سريعًا، فيرى الذين يعرفونه مكروهًا في عزيزٍ لديهم، بدلًا من أن يرى هو المكروه في عزيزٍ لديه. والأكثر من ذلك غموضًا وإبهامًا، قولهم عمّن كان يعيش إلى جوارهم فوق الأرض، ثم مات واندفن تحت التراب: انتقل إلى جوار ربه.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فإذا كان كلام التعازي لا معنى له، ولا تنضبط دلالته، فما الداعي لترديده دون فهم؟ وإذا كان العزاء ذاته لا فائدة منه للميت، لأنه محض تسلية وسلوان للأحياء المتشبثين بالأموات، فما الداعي لاعتباره واجبًا مفروضًا؟ وإذا كانت هذه المتوفاة التي تتم التعزية فيها يوميًّا، لم تُعرف في حياتها ولم يُتفق حتى على اسمها، فما الداعي لذهابه الليلة أو في أي ليلة للسُّرادق! وبالتالي فإن قراره الأخير هو عدم الذهاب، والاهتمام بما يحتاجه بيته من الترتيب والإصلاح، بدلا من تضييع الوقت فيما لا فائدة من ورائه.

* * *

لم يكن قراره الأخير، أخيرًا. لأنه حين نظر إلى ساعة يده فوجدها تدل على التاسعة والنصف، عاوده القلقُ وغمره الشعور بعدم الارتياح، فراح يتلفّت حوله حيرانًا حتى وقعت عيناه على الصورة الوحيدة المعلّقة على الجدار. تأمل وقفته في الصورة بالصفِّ الخلفي بين زملاء الدراسة، الذين صاروا اليوم زملاء العمل، وسوف يصيرون لاحقًا زملاء المقابر. لحظتها أحسَّ بأنهم يحدِّقون فيه ويدركون ما يدور داخل رأسه، فدهمه خوفٌ منهم ومن خطورة تساؤلاته السابقة ومن قراره الأخير، فانتصب فجأةً واقفًا ونفض عنه الأفكار كلها.. بكى بحرقة النادمين، دقيقةً واحدة، ثم مسح عن خدّيه الدمع وثاب وأناب وعاب على نفسه الاسترسال مع خواطره السابقة، الخطرة. ومثلما يفعل الجميع في تلك المواقف، خلّص نفسه من المسئولية بإلقائها على الكتكوت الناقر الكافر، فصار بريئًا من الذنب.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أسرع بارتداء ملابسه السوداء، وخرج مسرعًا إلى سرادق العزاء فأدركه وقد امتلأ بالمتأخرين من أمثاله، وشفع له الزحامُ فلم يلحظ أحدٌ أنه جاء لأداء الواجب المفروض، متأخرًا. ببطء النَّسَّاك، تقدم مع الصفِّ الداخل إلى الصفِّ الواقف على حافة السرادق، حيث الصفوة والقادة الذين يتلقون العزاء كل يوم. وحين وصل إلى أولهم، كان قد بلغ الغاية العليا من حالة الحزن المفرط والحماسة للموت. يعني صار مواطنًا صالحًا لا يثير أي شكوك. ثم صار من صُنَّاع التاريخ ومن خاصة الخلاصة، دونما قصدٍ منه. فعندما مدَّ يده إلى أول مطلق للعزاء، لم يعبر بسرعةٍ كالآخرين مكتفيًا بالغمغمة غير المفهومة، وإنما نطق بالحق المطلق حين دار بينهما هذا الحوار الذي بدأ كالمعتاد، وانتهى بمفاجأة:

ـ البقية في حياتك.

ـ حياتك الباقية.

ـ حياتي فانية.

ـ صحّ.. البقاء لله.

ـ وللبشر الفناء.

ـ الفناء لنا.

ـ لنا الفناء.

سمعهما المحيطون بهما، وغلب على أحدهم فورانُ الإيمان فردَّد

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بصوتٍ عالٍ ما سمعه منهما، وصاح زاعقًا به: الفناءُ لنا، ولنا الفناءُ.. اهتاجت بواطن الحاضرين وأعادوا العبارة صارخين بها، بكل ما يعمر قلوبهم من اتقاء الحياة والميل إلى الموت، فاهتزّت جوانب السرادق بأنشودة المجد الزائل: الفناءُ لنا، ولنا الفناءُ.. خاف الساكتون من الصارخين، فصرخوا معهم بأعلى صوتٍ وأصدق نبرةٍ، وسرعان ما انتظم الجميعُ في الترتيل الحماسي وتدافعوا إلى خارج السرادق الذي ضاق عليهم، وخرجوا إلى الشوارع متظاهرين.. مؤيدين.. مردّدين: الفناءُ لنا، ولنا الفناءُ.

انضمّ إلى المسيرة السائرون في الطرقات، والقابعون في بيوتهم، وكلُّ الذين كانوا نائمين فأيقظهم النداء. وعندما انتصف الليل كان الجميعُ قد خرجوا إلى الميادين والطرق الرئيسة متحمّسين، تطرق صيحاتهم آذان السماء وهم يردّدون بصوتٍ واحد، النشيد الخالد الذي صار من يومها ترنيمةً للعجائز وتميمةً للمواطنين جميعهم، على اختلاف أعمارهم ومستوى سلطتهم في المجتمع.. ومنذ ذاك اليوم اختفى الكفرُ والشكُّ والتفكيرُ، واجتمع الجميع على وجوب الالتفاف حول هذا الشعار الجماعي، المعلوم من الجمع بالضرورة، ولا يجوز بأي حالٍ الشكُّ فيه:

الفناءُ لنا، ولنا الفناءُ.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ ثُريا ◊

عندما بلغ به الإعياء مداه بعد ساعات أمضاها في دهان حوائط الغرفة، خرج إلى الصالة وأجال وجهه في جوانبها.. بحسب الاتفاق الذي جعل زواجه ممكنًا، سيدفع نصف راتبه الشهري ليكون له في الشهور المقبلة نصف هذه الصالة، وكل غرفته، وحق استعمال الحمّام المشترك. كان ذلك هو الحل الوحيد المتاح أمامه لإنقاذ خطبته بمحبوبته «حنان» وتحقيق أمله في الاقتران بها بعد أربعة أعوام عسرة، أثقلتها المشاكل وأشكال الاشتهاء. لكن الحب انتصر.

في الصالة استلقى على أحد الكرسيين كمن يريد أن يغفو، لكنه لن يستطيع الاستسلام لإغواء النعاس. فالسرير والكراسي الثلاثة «الأسيوطي» التي ستنوب عن الأنتريه وسفرة الطعام، ستصل بعد قليل. قال النجار إنه سيأتي بها بعد صلاة الظهر وقد اقتربت الآن صلاة المغرب، فلا بد أنه سيصل في أي وقت. المهم أن يأتي قبل عودة شركائه في الشقة، وهم «أسامة» وزوجته «نجلاء» وابنهما منتفخ الوجه الذي بلغ من عمره عامين. ليته يأتي قبلهم، حتى يستطيع تركيب السرير، قبل ازدحام المكان.. وغدًا سيأتي المنجد.. كل شيء سيكون على ما يرام.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كان «أسامة» زميلًا له في الدراسة، وجارًا في الحارة التي شهدت النشأة المحتشدة بالأحداث اليومية، وبالوجوه المألوفة، ولما سمع «أسامة» بالمأزق الذي كان يعصف بحلم حياته، بسبب الفشل في الحصول على بيت للزوجية. اقترح عليه أن يشاركه هذه الشقة ذات الغرفتين، وزيَّن له الأمر بأنه يظل في العمل معظم النهار وأول الليل، وزوجته «نجلاء» تبقى طيلة هذا الوقت مع ابنهما عند أمها الساكنة في الشارع الكبير، فتكون الشقة الصغيرة خالية غير مستغلَّة. ولو استقلت كل أسرة بغرفة، وتشاركوا في الصالة والحمام والمطبخ، وتغاضوا عن ازدحام المكان أيام الجُمع والإجازات، وحفظوا عهود المودة، وقل مجيء الضيوف. فلن تكون هناك أي مشكلة في العيش معًا، بل كل المشكلات سوف تحل: يخرج «أسامة» من مأزقه المالي الدائم، ويتم «الزواج» الذي بدا مستحيلًا لانعدام المُكنة والمكان، وينجح العيش في «تبات ونبات وخلفة الصبيان والبنات».. وطبعًا وافق على الفكرة من فوره، فانفرجت الأزمة من بعد طول الاشتداد، وكثرت الابتسامات.

«الحمد لله».. قال ذلك في نفسه وهو مستلقٍ على الكرسي، وابتسم قلبه لقرب الموعد المنتظر، وهام حينًا في سماوات المنى وراح في عليائه يناجي خيال حبيبته «حنان» التي حان قطاف ثمار حدائقها، بعدما طال الانتظار: ما الذي أخَّرك يا «حنان» عن العودة من شارع الأزهر حتى الآن؟ لا بد أنك اشتريت كل الاحتياجات: قطعة القماش الخفيف التي ستكون ستارة لشباك غرفتنا، والتوابل، وأصابع الماكياج. ولا بد أنك الآن في الطريق عائدة، سالمة غانمة، تحوطك البهجة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أنت يا «حنان» حبيبتي الوحيدة، ولا أحب أن أخالفكِ الرأي، ولكن كان الأجمل تأجيل نزولك المؤجل من أمس، إلى الغد، فنشتري معًا ما نحتاج.. ولكن لا بأس، أتفهم إصرارك المستمر على الخروج وحدَك للشراء، أو للبحث عن عمل يعين على صعوبات الحياة، أو لقضاء الأيام الأخيرة من عذريتك المفترضة، مع الصويحبات اللواتي سوف تقل بعد زواجنا فرص اللقاء بهن، والخروج معهن.

لا بأس يا «حنان» فقد اقترب موعدنا وستكونين لي ابتداء من الخميس المقبل، وستكون لنا هذه الغرفة المغلق بابها علينا. أمي تسميها «المطرح» وتفخر بأنني استطعت الحصول عليها، وانتصرت على الزمان العلقم. أمي تفهم حالي، من دون أن تبوح، وتُدرك إلحاح الملح في دمي بعدما بلغت التاسعة والثلاثين من دون زواج. وهي لا تريد لي الزواج في سن الأربعين، التي اقتربت مني بسرعة.. كيف مرّتْ عليَّ الأعوام وسرقت عمري؟

ولا بأس يا «حنان» في أننا سنقضي بعض الأعوام المقبلة في هذه الشقة المشتركة، فهي مجرد بداية. ولسوف نتدبر أمورنا ونسعى جاهدين للانتقال إلى بيت مستقل بنا، من بابه، يكون لنا كل غرفه وأنحائه. ومن يدري؟ فربما يفرجها علينا الرزّاق، فنقدر على تحقيق الحلم وحجز شقة في منزل جديد مرتفعة طوابقه. وله شرفة، وفيه أكثر من شبّاك. لكننا الآن لا يجب أن نُسرف في هذه الأحلام المستحيلات، وعلينا أن نتأسى عنها بأننا سوف نحقق يومًا ما، ما نريد.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

انتبه من غيابه الهانئ عندما علا صوت النجَّار الزاعق عليه من مدخل البيت، فهبَّ من استلقائه ونزل الدرج بفرحة الملهوف الملفوف بنشوة النوال المرتقب. ها هو السرير! يا فرج الله. عليه في الليلات الساحرات، ستكون الأوقات الحلوة والحارة والحانية والحاضنة للمحبوبة «حنان» وفوقه سوف تصير أطرافهما العارية، أجنحةً تحلِّق بهما في سماوات بعيدة عن عالم الناس هذا. وتحته سيكون المخبوء من أغراضهما، والمدسوس من البهجات الآتية.

لم يستغرق النجار في تركيب قوائم السرير وعوارضه، إلا دقائق معدودات. وبتفاخرٍ أجوف، أكد له أن هذا السرير نحيلُ القوائم، لكنه قوي متين ويليق بالجدد من الأزواج، وابتسم. وابتسم مجددًا وهو يتناول من «العريس» بقيَّة ثمن السرير، والكرسيين. وابتسم ثالثًا وهو يفارقه عند باب الجُحر المسمى «شقة» ويقول له ملاطفًا: كده خلاص يا بطل، هانت وبانت، المهم تاخد بالك من صحتك اليومين اللي جايين، علشان ترفع راسنا مع العروسة.

قاطعه وقطع كلامه الذي بدأ ينحرف عن سواء السبيل، بأن اصطنع الضحك وأظهر الابتهاج والانشغال وهو يقول: شكرًا يا عم الحاج.. فلم يجد عم الحاج النجار، بُدًّا من التعجيل بالانصراف.

برفق، أغلق عليه الباب واستمتع بالسكون الذي لن يدوم أكثر من ساعة، سيأتي بعدها شريكه في السكن وزوجته «نجلاء» وابنهما جاحظ العينين، المحدق دومًا بذهول.. استمتع بالنظر إلى السرير

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

العاري من الفرش واللحاف، المفعم بالوعود السحرية الغامضة. واستمتع ببرودة الماء عند الحوض المكسور جانبه، وهو يغسل وجهه من النقاط الملونة التي تناثرت عليه وهو يطلي حوائط الغرفة باللون المناسب للأزواج الجدد.. في المرآة وجد وجهه قد ازداد نحولًا، ولا بد من مراعاة نصيحة النجار.

طمأن نفسه بأنه، وإن كان شديد النحول وناتئ الأطراف، لكنه قادر على القيام بكل ما يحلم به مع محبوبته الوحيدة، البعيدة، التي هي على وشك الوصول.. عاود النجوى: ما الذي أخَّرك يا «حنان»؟ أما كان الأصح أن تصلحي تليفونك المحمول، حتى يمكنني الاطمئنان عليك واستعجالك في العودة، قبل وصول «أسامة» وأسرته. لتسنح لنا لحظاتٍ من القطف، نتصبَّر بها. لا بأس يا «حنان» ربما سأُحرم منك اليوم مثلما حُرمت في الأيام السابقات، وتحرَّقت في حرماني حتى كدت أحترق. وأوشكتُ أن أدخل إلى الأربعين من دون دخول الدنيا! الدنيا هي الزوجة والزوج، والسرير.

معًا سنكون يا «حنان» حتى آخر العمر، وأعتقد أنك سوف تتخلَّين بعد حينٍ يسيرٍ، عن شرطك الذي يغيظ أمي. أعرف أنك قبلتِ العيش معي في شقة مشتركة، بشرط عدم الإنجاب. إلا إذا أكرمنا الله، بالشقة المستقلة التي تحلمين بها. وأعرف أن إصرارَك هذا لن يدوم. فقد عبرتِ من عمرك الثلاثين، ولن يكون لنا هذا الحلم قبل انقضاء سنوات طوال، لا بد أن يغالبكِ خلالها الحنين إلى الإنجاب، ويغلبك، فتحبلي مني هنا. وها هو «أسامة» و«نجلاء» لديهما طفل،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ولا يجدون مشكلة في العيش المشترك ما دامت الظروف قد حكمت بذلك، بل هو الذي اقترح الأمر. وزوجته تبدو موافقة وسعيدة بها سوف تناله كل شهر من مال حلال، سأضحِّي به لأكون قربك.

وأعرف يا «حنان» أن انعدام القبول، المتبادَل بينك وبين أمي، سوف يزول تدريجيًّا كلما اعتدتِ على حياتكِ معي، واعتادت أمي والجميع على وجودنا معًا. وعندما تتراخين في اشتراطكِ عدم الإنجاب، وتقبَّلين الواقع الذي تقبَّلته قبلك، لأنني أحبك، سيسعد بك الجميع مع أمي.. أمي متوجِّسة منك وتسمِّيك فيما بيني وبينها «الغندورة»، وتهمس في أذني كلما سنحت لها الفرصة، قائلةً عنكِ بلسان الحموات: البنت دي شكلها كده مش ناوية على عمار.

* * *

أذان العشاء أشعل في صدره نيران القلق. فقد توغل به الليل الساكن، من دون أن تعود «حنان» بما ذهبت منذ الصباح الباكر لإحضاره، وكان ظنُّه أنها لن تغيب إلا ساعتين أو ثلاثًا. ولكن، مرت ساعات النهار وثلاث من ساعات الليل البطيئة، ولم تأتِ.. ولم يأتِ «أسامة» وأسرته أيضًا! لا بد أنه تعمَّد العودة متأخرًا، ليترك لي الفرصة لإنهاء لوازم منزل الزوجية، والانفراد حينًا بالمحبوبة التي ستكون زوجة آخر الأسبوع. ولا بد أن «نجلاء» زوجته هي التي شجَّعتْ هذه الفكرةَ، أو لعلها هي الداعية إلى عودتهم متأخرين، لتبقى وقتًا أطول في بيت أمها وحولها أهلها، المطلة شرفتهم على

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الشارع الكبير. هي رفاهية أن يسكن أهلها في شقة تطل على شارع، لا حارة، ولأنها نشأت مترفة، فلا بد أن لها في بيت أهلها جارة تُفضي إليها بأسرارها، وتبوح لها بسر نظراتها.

نظرات «نجلاء» تخفي دائمًا المعاني النسائية المحظورة، وتفصح أحيانًا عن بعضها. ولكن، لأنها زوجة زميلي وصديقي ومنقذي من هوان الحرمان، ولأنني شخصٌ مهذَّب، أحرص دومًا على غضِّ بصري إذا تحدثَت «نجلاء» إليَّ، فأستأمن بذلك من النزق. فأرتاح. ربما كنت مخطئًا في حكمي عليها، ولعلني ظلمتها عندما ظننتُ فيها صباح أمس الظنون. نعم، هي لم تقصد أي شيء. عندما طرقتُ بابها الذي سيصير بابنا، في تمام الساعة التاسعة صباحًا، نظرت «نجلاء» في عيني وهي تفتح لي الباب، فكانت نظرتها الأولى مزلزلة. لم أرَ نظرتها الثانية، لأنني غضضت النظر واستمعت إليها وهي تخبرني بكلام مرحَّم، منعَّم، أن «أسامة» خرج لعمله وأن ابنهما نائم، وهي منذ ساعة تنتظر وصولي لأصلح ماسورة الحمام، فتستطيع الاستحمام. أنهيت المهمة بمهارة وسرعة، وتركتُ لها الحمَّام وهممتُ لإصلاح باب الغرفة التي ستكون بيت زوجيَّتي وانهمكتُ حتى انتبهتُ، لحظة خروج «نجلاء» من الحمَّام.. كانت كالحوريات اللواتي يخرجن أحيانًا من البحر، وكانت قطرات الماء تتساقط من شعرها الأفعواني الكثيف، على ثوبها الكاشف الشفيف.

ابتسمتْ لي، فتجاهلتُ ابتسامتها ودققتُ بقوةٍ المسمارَ الذي دققتُه من قبلُ، ثم أغلقت عليَّ باب الغرفة وانتظرتُ ساعة حتى سمعتُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

باب الشقة يُغلَق. نظرتُ من ثقب باب الغرفة فتأكدت من أن الشقة صارت خاوية، فخرجتُ أتلصص حتى تيقنت من أنني وحدي، فتنهدت مرتاحًا وارتحتُ إلى ظني بأن «نجلاء» تتصرف بتلقائية، ولا تقصد أي شيء.. كل ما في الأمر أنها فاتنة، وأنا محروم.

لا أدري ما السببُ الذي دفعني إلى الإسراع نحو الشبَّاك، لأرى «نجلاء» وهي تخرج من باب البيت، ومن الحارة! مثلما أفعلُ كل يوم، ولا أدري ما السببُ الذي يدفعني إلى ذلك.. بقيتُ مُطلًّا من شباكي ومحدِّقًا في جهة التحت، طويلًا، فلم أرها تمرُّ ولم أعرف كيف اختفتْ. تسمَّرتُ في وقفتي عساها تظهر، أو تأتي محبوبتي «حنان» لمتابعة التجهيزات الجارية، أو تأتي أمي الطيبة الماكرة لتطمئن على أحوال ابنها الوحيد، جدًّا.. لم يأت أحدٌ أو يذهب، ولم أر إلا الجارات ينظرن نحوي بأسف، وأطفالهن يضحكون بسخريةٍ غير مفهومة. أغلقتُ الشباك حين خاطبني من الشرفة المقابلة صبيٌّ مخبول صاح بصوتٍ صارخ قائلًا: إنت لسه مستنِّي العروسة، ها ها ها..

* * *

احتميتُ بفراغ الصالة، وبقيتُ جالسًا على أحد الكرسيين حتى سكنت الأصواتُ الآتية من ناحية الحارة، ثم عَمَّ الظلام.. مرَّت أيامٌ، أو شهور، ولم يأتِ «أسامة» للمبيت ببيته. ولم تأتِ «نجلاء» من عند أمها، ولم يأتِ ابنهما الصغير. والأهمُّ أن «حنان» لم تأتِ، ولم أرها إلا في خيالي ومناجاتي الدائمة: ما الذي يمنعك عني يا «حنان» وكان

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الواجب عليك أن تكوني بقربي هذه الأيام؟ أتراك تختبرين حبي لك قبل الزواج، أم تراك ما زلتِ غاضبةً من آخر حوار جرى بيننا؟ لم يكن في الحوار ما يغضبك. ولأنني أذكره كلمةً كلمة، فإنني متأكد من أنك على الود باقية. فقد قلتِ لي يومها إنك تريدين في غرفة نومنا «نجفة» فقلتُ من فوري: إن النجف كالتحف، كماليات، وعلينا أولًا شراء الاحتياجات الأساسية.

ـ بس النجفة أساسية بالنسبة لي.

ـ بلاش مبالغة يا «حنان».

ـ بقول لك النجفة أساسية!

ـ على فكرة، هي اسمها «الثريا»..

ـ ثريا مين؟

ـ أيوه والله، ثريا يعني نجفة.

ـ آه طيب.. أنا ماشية.. أشوفك بعدين.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ وَجْدُ الجلّاد ◊

بعدما نظرتْ طويلًا، بأسًى فادحٍ، في الأنحاء الخَرِبة التي كانت سابقًا منزلها العامر. همستْ «أمُّ السعد وجيدة بنت خلف الوزّان» لنفسها، بأنه لا فائدة تُرجى من البقاء وحدها وسط هذه الأطلال، خصوصًا بعد بيعها صباح اليوم بوابتَي البيت: الأمامية الكبيرة، والخلفية الصغيرة.. مسحتْ خدَّيها وزَفَرتْ كمصدورٍ، ثم قامت ببطء الثكالى فجمعتْ ما تبقى في الغرف من مُهلهل ثيابها، وعقدتْ عليها أطراف ملاءة السرير فصارت مثل زكيبةٍ رخوةٍ، دسَّتْ فيها بين الطيّات سنوات عمرها التي نيَّفتْ على الستين. ولمّا لم تجد المزيد لتفعله، جلست بحوش البيت قرب الباب المخلوعة ضَلْفتاه، وبجوارها الزكيبة الصغيرة، انتظارًا لاقتراب الغروب كي تستتر بظلال المساء التي سوف تمتد، حين ترحل عن هنا للسكنى مع قريبتها «أم الخير محفوظة بنت عسران ابن السكر والليمون» فتبقى مقيمة عندها، حتى توافيها الوفاةُ فترحمها من الذكريات.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أيام البهجات الأولى وميعة الصبا كانوا يدلّلونها في بيت أبيها الفقير، المستور، بأن ينادوها أحيانًا باسم «وجد» وأحيانًا بكنية «أم السعد».. ولمّا تزوّجها جارهم بمصر العتيقة «جندل القصّاب» ظنّتْ أن هذه الكُنية ستكون صفةً دائمة لحياتها، وأمعنت الأماني في خداعها بعدما أنجبتْ لزوجها ابنهما «سعد الدين» فصارت فعلا أمّ السعد، ثم ابنتهما «قَرَنْفُلة» التي جاءت ومعها سعةُ العيش، إذ استطاع زوجها في الشهر الذي وُلدت فيه البنت، استئجار دكان في شارع «الصنادقية» المؤدي إلى الجامع الأزهر، وهو الشارع المعروف بازدحامه ووفرة رزقه حتى مع توقّف إقامة الصلاة في الأزهر بأمرٍ من السلطان الناصر صلاح الدين. ومن يوم استئجاره الدكان، كفّ «جندل» عن المرور على البيوت بالذبيحة التي يبيع لزبائنه منها، وما عاد يُلبّي استدعاء الراغبين في ذبح الخراف ببيوتهم. وصار المشترون يأتون إليه وهو مستقرٌّ في دكانه المحفوظة فيه قطع اللحم برسم البيع، وأمامه الخراف التي يتاجر فيها حيةً.. وشيئًا فشيئًا، راجت تجارته وجرت الدراهم بين أصابعه، وهدأ البال من هموم نقص المال.

ما كان يخطر على خيال أحد، أن الفكرة البسيطة التي وردت فجأةً على ذهن «جندل» وهو جالسٌ على عتبة دكانه، سيكون لها هذا الأثر الكبير عليه وعلى الذين من حوله.. كان ذلك في مطلع شهر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة النبوية، وكانت الأخبار قد وردت بأن عسكر الإسلام من مماليك الملك الصالح، غلبوا التتر في وقعة «عين جالوت» بقيادة كتبُغا المغولي، في غيبة ملك التتر «هولاكو

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

خان» المسمى عند العامة من الناس «هولان». وأن المماليك غدروا ببعضهم البعض كالمعتاد منهم، وبعد الوقعة والنصر تربَّص الأميرُ بيبرس البندقداري وجماعةٌ معه بالملك المظفر «سيف الدين قطز» فقتلوه غيلةً وجعلوا قاتله «بيبرس»مكانه، عملًا بالمبدأ الذي وضعه الملك المغدور به، كشرعةٍ للمماليك ومنهاجا: الحكم لمن غلب. وأن المماليك وعساكرهم في طريقهم إلى مصر لتنصيب «بيبرس» ملكًا وحاكمًا عليهم وعلى البلاد، وموكبهم سوف يصل بسلامة الله ساعة العصر، بعد غدٍ.

هنا خطرت الفكرة على رأس «جندل» فتحدَّث لمن حوله، مقترحًا خروجهم لاستقبال الملك الجديد خارج السور، للترحيب به وإنشاد أغنيات الولاء له.. وافق على الفكرة كثيرون، وكثيرون رفضوها مفضّلين الابتعاد عن دائرة السُّلطة السليطة، وكان من معارضي «جندل» عمه الشيخ الزاهد المنقطع للعبادة في الجامع العتيق بناحية الفسطاط، وقال لجندل ما فحواه إننا في حلٍّ عن التأييد والاعتراض، معًا، ولا شأن لنا بمن يغلب فيحكم لأننا في خاتمة المطاف المحكومون وليس بيدنا من الأمر شيء. حاججه «جندل» بأن البلاد والعباد في احتياج لرجلٍ عسكريٍّ قويِّ الشوكة مثل «بيبرس» ليحفظ الأمن ويدفع الأخطار، فقال له عمُّه: أنت وشأنك، لكنني غير موافق على تأييدك لهذا القاتل الذي غدر بالملك المعظم «توران شاه» ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، واغتاله، ثم غدر بالملك «المظفر قطز» الذي جعله وزيرًا له، فكان جزاؤه أن اغتاله «بيبرس»

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في أول فرصةٍ سنحت له، فلم يهنأ الملك المغدور به بالانتصار وانقطع أجله وهو لم يمضِ في الحكم غير سنةٍ واحدة..

يوم وصول عسكر المماليك وعلى رأسهم «بيبرس» كان الجمع الذي جنّده «جندل» في انتظارهم خارج الأسوار حيث اصطفُّوا في طابور طويل، صاخبين مرحِّبين مهلِّلين، ثم ساروا خلف موكب العسكر حتىّ دخلوا بالملك الجديد قلعة الجبل. وقد أُعجب بيبرس بهذا الاستقبال غير المتوقع، وطرب للأغنيات والأهازيج المرحّبة به، فسأل عن صاحب هذه الفكرة ومنفِّذها فأخبره صاحب العسس السلطاني بأنه رجلٌ من عوام المصريين المحكومين يعمل قصّابًا، اسمه «جندل».. فهز بيبرس رأسه الأحمر الضخم، راضيًا.

في نهاية هذا الشهر؛ ذي القعدة، كان المماليك قد أعلن معظمهم الولاء للملك الجديد الذي اختار لنفسه لقب «القاهر» لكن أصحابه نصحوه بتغييره لأن هذا اللقب كان نذير شؤمٍ على الذين اختاروه سابقًا، فتوجّس واختار لنفسه اسم «الملك الظّاهر بيبرس»، وقرّر الخروج من القلعة في موكب الملوك، ليفرح به عوامُّ المصريين المملوكين للمماليك. وطلب من رئيس العسس أن يتصل بالرجل الذي اسمه «جندل» ليفعل يوم خروج موكب التنصيب، ما فعله سابقًا من الحشد والتهليل والترحيب.

أرسل رئيس العسس إلى الدكان رجلًا نحيلًا من العاملين معه، فهمس في أذن «جندل» بأنه مطلوبٌ على وجه السرعة للقاء شخص مهم، عند المدخل الخلفي للقرافة الكبرى.. فرح «جندل» بهذا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الاستدعاء الرسمي وأسرع بإغلاق دكانه نهارًا مدعيًا لجيرانه حجة ساذجة، وسار خلف الرجل النحيل حتى التقى بالرجل الخطير في المكان المذكور.. وفرح حين عرف أن الملك أعجبه حشد العوام يوم العودة من «عين جالوت» وأنه يريد حشدًا أكبر يوم خروج موكبه من القلعة بعد غد، فأبدى «جندل» حماسةً لتنفيذ هذا الأمر مؤكدًا أنه سيبذل أقصى جهده ليكون عند حسن ظن رئيس العسس، وعند حسن طاعة الملك الجديد.. وفرح حين أعطاه رئيس العسس صرة كِتَّانٍ فيها عشرون دينارًا، ليستعين بها على تكاليف الحشد ودفع دراهم معدودات للعوام الذين لا يتحمّسون سياسيًا إلا بمقابل مالي. وحذّره من البوح بأي شيء جرى في هذا اللقاء السري، وأكّد عليه أن يقنع العوام بأن الترحيب بالحاكم الجديد هو عملٌ وطنيٌّ، لا دافع له إلا الحرص على المصالح العامة والحبُّ العميق للملك الجديد. ووعده بالرضا والخير الكثير، إذا نجح في حشد الشرفاء والرقعاء من العوام بعددٍ وفير يناسب جلال المناسبة، وألمح له بأنه قام سرًّا باستمالة بعض فقهاء السلطان وسوف يزخرفون الحشد فيبدو يومها معبِّرًا عن طوائف الشعب السعيد بالحاكم الجديد.

كان رئيس العسس صادق الوعد، فبعد نجاح الاحتفالية أرسل واحدًا من أعوانه لإبلاغ «جندل» بأن الملك الظاهر راضيًا عنه، وسوف يقابله في المساء بقلعة الجبل.. في الموعد المحدّد ارتدى «جندل» أفضل ثيابه، واكترى بغلةً حملته إلى مكان اللقاء الذي توقّع أن يكون في القصر، لكنه قابل «بيبرس» في غرفةٍ فسيحة بالقرب من بوابة القلعة. في بداية اللقاء راح قلب «جندل» يرتجف خوفًا،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وارتعدت فرائصه من هول المقابلة خصوصًا مع ضخامة بدن الملك وحمرة وجهه المتجهّم وشعره الملتف كالخواتم الذهبية القديمة، وزاد من رعبه نظرة الملك وملامحه القاسية والبياض الذي بإحدى عينيه. لكنه اطمأن حين دعاه «بيبرس» للجلوس، وابتسم له، ثم جرى بينهما عبر المترجم الحوار التالي:

ـ قيل لي إنك تعمل قصّابًا، يعني لا يفزعك الدم واللحم إذا تقطّع، يعني قلبك قوي. فهل هذا صحيح؟

ـ صحيح يا مولاي.

ـ وهل تعلم أن لي أعداءً يتربّصون بي وبالبلاد، ولا بد من قطع دابرهم، والذين يميلون إليهم لا بد من تأديبهم؟

ـ لا بد يا مولاي.

ـ أما القتل وقطع الدابر فسوف أتولاه بنفسي ولا شأن لك به؛ لأنك لن تقدر عليه، لكنني أريدك لتأديب العوام الذين يميلون إلى أعدائي. فهل تحب أن تعمل في وظيفة الجلاد.

ـ أحب يا مولاي.

ـ جيد، سوف يخبرك رئيس العسس بمهام وظيفتك.

ـ السمع والطاعة يا مولاى.

* * *

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أخبره رئيسُ العسس بأنه سيكون رئيسه المباشر، وبأنه قبل استلام مهام منصبه الجديد كجلادٍ يجب عليه أن يبقى فترة وسط الناس، عليه خلالها أن يتسمّع ما يتهامس به العوامُّ، لتمييز الطيب المؤيد من الخبيث المعارض. وعليه أثناء هذه الفترة أن يقترب من عامة الناس كي يتتبّع أخبار الممتعضين من مقتل قطز، حتى يتسنّى تشتيت قواهم قبل اجتماعهم على رأيٍ واحد. وعليه أيضًا خلال هذه الفترة أن يستكشف المؤيدين للداعي الفاطمي، الرفضي، المدعو «الكوراني» الحالم بعودة دولة الخلفاء الغابرة، ومعاونوه من رءوس الفتنة الذين ينظمون المظاهرات الليلية ضد الملك الظاهر.. وافق «جندل» من فوره على المهام المطلوبة، جميعها. ووعد ببذل أقصى طاقته لتحقيق المطلوب منه، وحصل من رئيس العسس على منحةٍ مالية في صُرة كالسابقة، ليستعين بها على النفقات.

تحسَّس صُرَّةَ الدنانير وهو ينحدر على ظهر البغلة من ناحية القلعة إلى منزله، فامتلأ صدر «جندل» بأحاسيس قوية لم يعهدها من قبل، وقال في نفسه ما معناه أن الفرصة جاءت إليه تسعى وتحمل الرزق الوفير، وعليه فقط أن يجتهد فيما طُلب منه حتى يرضى عنه الكبراءُ ويقرِّبوه منهم، فيطلب العوام رضاه ويتقرَّبوا إليه، فيتهنّى في مقبل الأيام بما قسمته له المقادير.

لم يُضيع «جندل» وقتًا. في الصباح التالي استأجر دكانًا في حارة «بَرْجَوَان» ليحصل من خلاله على أخبار أزقّة القاهرة ويعرف أسرار التظاهرات المعارضة التي تخرج منها، وبعد أسبوعين استأجر

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

دكانًا ثالثًا قرب بوابة الجامع العتيق ليحصل من خلاله على أخبار البلاط، ويعرف رءوس المعارضين للحكم. وجعل له ثلاثة معاونين من أقاربه، فكان يدور عليهم يوميًّا بانتظام فيجلس في كل دكان من الثلاثة حينًا، ليعتاد الناس رؤيته ويبذلوا له ثقتهم ثم يحدّثوه بأسرارهم. وخلال ذلك، كان يتودّد إلى الجيران، ويُحسن إلى فقراء الحيّ المحيط بكل دكان. كما صار يُرخص أسعار بيع اللحم، ويبيع الرطل منه بثلثَي ثمنه.

ونجحت خطته فأحبَّه الناس وهوت إليه قلوبهم وبطونهم، فتحقّق له ما أراد وحصل ممن حوله على كثير من دقائق الأخبار التي أسهمت، مع جهود بقية العسس، في إلقاء القبض على «الكوراني» الفاطمي الرافضي المارق. فقتله الملك الظاهر وعلّق جثمانه على باب زويلة ليكون عبرةً لمن شاء أن يعتبر، واعتقل كثيرين من أتباعه فأُلقي بهم في غيابة الحبوس. كما أسهمت جهود «جندل» في القضاء على فئة المتباكين على مصير الملك السابق «سيف الدين قطز» وأبلغ رئيس العسس سرًّا بأسمائهم، فتمَّ قتل رءوسهم واعتقال كثيرين منهم جرى زجّهم مع قرنائهم في غيابة الحبوس. وكذلك كانت لجهود «جندل» أثرها في معرفة أعوان المعارض العتيد «علم الدين سنجر» الذين كانوا يتلقون منه الأموال المشبوهة المنسربة إليهم سرًّا من خارج البلاد، لإثارة القلاقل والفتن في الأنحاء، فتم بحمد الله قتل بعضهم واعتقال كثيرين منهم بالحبوس تمهيدًا لتأديبهم.. وكان الشيء الوحيد الذي نغّص صدر «جندل» أيامها، أن عمّه الزاهد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كان في جملة المعتقلين، وعبثًا حاول التوسُّط له والاعتذار عنه بأنه شيخٌ خَرِفٌ لا يدري ما يهرف به، لكن وساطته لم تنجح ولم يُقبل اعتذاره. فخشي أن يؤدّي ذلك إلى انعدام الثقة به وإثارة الشك فيه، فلم يعد للوساطة والاعتذار واعتذر عنهما بأنه أخطأ في الحكم وكان حسن النية، وأكّد أن الرجل ليس عمّه بالفعل لكنه قريب من بعيد للمرحوم أبيه، فكان يناديه تأدُّبًا عمّي! لكنه الآن عرف خطأه وتبرّأ من تلك القرابة البعيدة.

في مطلع العام الأول بعد الستين وستمائة من هجرة الرسول، كانت أحوال «جندل» المالية قد تحسّنت فكاد يلحق بالأعيان بعد ثلاثة أعوام من العمل الاستخباراتي الرخيص، وكانت زوجته راضية عن رغد العيش الذي تنعم به أسرتها الصغيرة، واكتملت سعادتها بتزويج الولد والبنت وانتظار الأحفاد والأسباط. ومع مرور الوقت كاد «جندل» ينسى الاتفاق الأول، وتوهَّم أن عمله السرّي سيظل دومًا سرّيًا. لكنه فوجئ باستدعاء رئيس العسس الذي أخبره بأن المعتقلين امتلأت بهم الحبوسُ وضاقت عنهم، ولا بد من الشروع في تأديبهم بالجلد كي يموت منهم مَنْ يموت، ويُطلق سراح الذين يتأدّبون ويدينون بالولاء الصريح للملك الظاهر. وبشَّره بأن الملك لا يزال يتذكَّره وسوف يقابله بعد صلاة الجمعة القادمة، ثم يوقّع له على قرار تعيينه جلادًا عقب المقابلة، ويُجري له الرزق الذي يستحقه.

استبدَّ القلق بقلب «جندل» وعقله فحرمه النوم طيلة ليلتين، ولمّا لاحظت امرأته اضطراب أحواله واجهته بالأمر، وسألته إن كان ينوي

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الزواج بغيرها فأنكر، فهدأت خواطرها وتوهّمت أن ما به هو من أثر الحسد، فأطلقت في البيت البخور.. مساء يوم الخميس عاد «جندل» إلى البيت مبكرًا، آملًا في النوم. لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا. سألته امرأته بلطفٍ عما يعانيه، فباح لها بأنه سيلتقي في الغد بالملك الظاهر وسيكون ابتداءً من بعد غد واحدًا من جلاديه المعتمدين.

خبطت «وجيدة» بكفّها على صدرها، وانفلتتْ من صدرها صرخةٌ مكتومة، ومن عينيها دموعٌ. اعترضتْ عليه بأنهم ليسوا بحاجة إلى وظيفةٍ قبيحةٍ كهذه، فاعترض على اعتراضها بأن الاختيار ليس بيده. واعترضت عليه بأن أحوالهم تحسّنت في السنوات الأخيرة لأنهم كانوا بعيدين عن الحكام، فاعترض على اعتراضها بأنه لولا تقرُّبه منهم ما كانت الأحوال قد تحسّنت. كما اعترضت عليه بأن هذا العمل لم يعد يناسبه بعدما تخطى الأربعين من عمره، فاعترض على اعتراضها بأنه لا يملك الرفض وإلا احتفَّت به الشكوكُ وحامتْ حوله.. غلبها الهمُّ فنامت، وأمضى هو ليلته مُسهّدًا.

وقت الضحى لبس أفضل ثيابه وركب بغلته فأخذته إلى القلعة، وفوّت صلاة الجمعة لأن الحرس رفضوا دخوله المسجد السلطاني للصلاة مع حاشية الملك، وأمروه بالانتظار في الغرفة الفسيحة التي كان فيها اللقاء السابق، فجلس هناك ساكنًا حتى دخل عليه الملك قبيل صلاة العصر، وجرى بينهما هذا الحوار:

ـ بلغني أنك اجتهدت في عملك السنوات الماضية، وتستحق المكافأة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ خادمك المطيع يا مولاي.

ـ من الغد ستبدأ في جلد المحكوم عليهم بالجلد، والمعارضين المعتقلين، ولا يجب أن تأخذك بهم شفقة ولا رحمة.

ـ خادمك المطيع يا مولاي.

ـ الذي يقضي من ضرب السياط، لن تُلام على موته. فكن قوي الضربات، واجعل السياط تلتف من الظهور إلى البطون عساها تنفزر، فنستريح من المجلودين.

ـ خادمك المطيع يا مولاي.

ـ سأحضر أحيانًا جلسات الجلد، لأنني أميل إلى مشاهدة التأديب ورؤية الندم وهو يكسو الذين كانوا يعارضون، فكن دومًا مستعدًّا لحضوري.

ـ خادمك المطيع يا مولاي.

* * *

ظلّ «جندل» يجلد الناس أعوامًا، ويلتذُّ حين يرى الملك يلتذُّ بوقع السياط وصراخ المعذّبين، ويبتهج إذ تنفزر تحت الضربات البطون. وصار مع الوقت يجلد بشكل قاسٍ ودون أسفٍ، فمات تحت سياطه خلقٌ كثيرٌ، وعطب آخرون فأطلق سراحهم وهم مُحطّمون، لا يصلحون للعير ولا للنفير.. وسارت الأيام على ذات المنوال، حتى جاء اليوم الذي اضطر فيه لجلد عمه الزاهد الذي كان معتقلًا ومنسيًّا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في الحبس منذ سنوات. ومع أن الملك لم يكن حاضرًا يومها جلسة الجلد، إلا أن «جندل» خاف أن يخفّف، فتلحق به التهمةُ الخطيرة: عدم الولاء والرفق بالأعداء.

كان المقرر أن يجلد الشيخ عشرين سوطًا، لكن الرجل لم يحتمل الجلدة الأولى لضعف بدنه، وسقط مغشيًّا عليه. ثم شهق شهقةً عظيمةً وأسلم روحه، بعدما نظر في عين «جندل» نظرةً فيها من المعاني ما تعجز اللغة عن التعبير عنه. لحظتها انهارت كل الحصون، وأخذ الدوارُ برأس «جندل» فاعتذر عن استكمال عمل اليوم بسبب المرض المفاجئ، وأسرع إلى منزله كمن يهرب من حرائق روحه. طلب من امرأته أن تدثّره بلحافٍ فاستغربت طلبه، فالأوان صيفٌ حار، وظنّت أنها الحمى.

في جوف الليل راح «جندل» يتفزّع كالمصروعين، فاستدعوا له في الصباح طبيبٌ مبتدئ، أكّد لهم أنه لا يعاني من أي نوع معروف من أنواع الحمى. وبعد يومين ساءت أحواله أكثر، فصار يصرخ فزِعًا طيلة الليل ويئن خلال ساعات النهار، فاستدعوا له طبيبًا خبيرًا أخبرهم بأن العلة نفسانية، وسببها غلبة الوجد. وبعد شهور تدهورت خلالها أموره، أخبر الأطباء بأن «جندل» لا أمل في شفائه، لأن سبب العلة مجهول. وقالوا لأهل بيته: مادام النوم في المرض المزمن يُحدث وجعًا، فذلك من علامات الموت! ونصحوا بإيداعه في بيمارستان الأمراض النفسية، الشبيه بالحبوس، مع بقية الميئوس من جدوى علاجهم.. وبعد سنوات تراكمت الديون، لا سيما بعدما

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

نسي رئيسُ العسس والملكُ والمملوكون، ذلك الجلاد الذي كان قد اجتهد في خدمتهم وأخلص، حتى صار من جملة الهالكين.

* * *

بعدما نظرتْ طويلًا، بأسًى فادحٍ، في الأنحاء الخَرِبة التي كانت سابقًا منزلها العامر. همستْ «أمُّ السعد وجيدة بنت خلف الوزّان» لنفسها، بأنه لا فائدة تُرجى من البقاء وحدها وسط هذه الأطلال، خصوصًا بعد بيعها صباح اليوم بوابتَي البيت: الأمامية الكبيرة، والخلفية الصغيرة.. مسحتْ خدَّيها وزَفَرتْ كمصدورٍ، ثم قامت ببطء الثكالى فجمعتْ ما تبقى في الغرف من مُهلهل ثيابها، وعقدتْ عليها أطراف ملاءة السرير فصارت مثل زكيبةٍ رخوةٍ، دسَّتْ فيها بين الطيّات سنوات عمرها التي نيَّفتْ على الستين. ولمّا لم تجد المزيد لتفعله، جلست بحوش البيت قرب الباب المخلوعة ضلفتاه، وبجوارها الزكيبة الصغيرة، انتظارًا لاقتراب الغروب كي تستتر بظلال المساء التي سوف تمتد، حين ترحل عن هنا للسكنى مع قريبتها «أم الخير محفوظة بنت عسران ابن السكر والليمون» فتبقى مقيمة عندها، حتى توافيها الوفاةُ فترحمها من الذكريات.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المجموعة الثالثة

قصارُ الأقاصيص

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الموجةُ الأولى، ارتمت على صدر الصخرة آملةً الحصول على حضنٍ دافئ، فلما لم تجده سالت على جوانبها كالدموع، وانحسرت لتفسح الطريق للموجة التالية الآملة كسابقتها في المستحيل.. وجاءت من الموجاتِ بعد الهادئاتِ العاتياتُ، وتتالتْ، ولكن الصخرة بقيتْ على حالها النافر من الحضن والتحنان، فسألها البحرُ عن سر استعصامها من موجاته واستعصائها عليها. وأعاد السؤال مراتٍ لا حصر لها. وبعد زمنٍ مديدٍ ملّت الصخرة من تكرار سؤاله، مع أن الإجابة واضحة، فصرخت في البحر حتى سمعتها سُحُب السماء، قائلةً له: إليك عني، فالاحتضانُ ليس من طبع الصخر، وموجاتك الحانيات والعاتيات تصيرني بالهوى والهواء فتاتًا لا قرار له، إلا بين رمال قاعك التي كانت يوما صخورًا.

البحرُ لم يقنع بما سمعه، ولم تعجبه شكوى الصخرة. فظل يرسل إليها موجاته متتابعةً حتى استسلمت رويدا، وتشقَّقتْ، ثم صارت حصًى ورمالًا في قاعه. وهناك نامت بين سابقاتها المسحوقات، المنسيِّ أصلُها.. وعندئذٍ، أرسل البحرُ من فوره إلى الصخرة التالية، موجاته الآملة في الاحتضان المستحيل بين السائل والجامد.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

افتضاح

في ساحة الإفصاح سألتُ مجذوبًا كان يضحك قليلًا ثم يبكي كثيرًا، قلتُ: هل استبشرتَ بالعام الجديد؟ فصار شرودُه ذهولًا، وحوقل، وحملقَ في اللانهائي، ثم أخذته نوبةٌ كتلك التي تأخذ المصروعين. ولما استفاقَ واستعادَ عقله المخبول، أجابني متهدجَ الأنفاس: كدتُ، لكنني انتبهتُ لحظة أدركتُ أننا في بداية العام 1954، ففهمتُ من إجماله التفصيلَ ولم أسأله بعدها عن أيِّ شيء، قط.

* * *

خُبثٌ خفيّ

من كُوّةٍ في جدار البيت القديم، حيث كنا نتسامر بذكر أخبار القطب الجنوبي، المتجمّد. دخل علينا عصفوران وراحا يرفّانِ في سماء الحجرة بأجنحة الوجل، فقام رجلٌ أخرق ليطردهما بمكنسة العرجون القديم، فلم ينطردا. قال أوسطُنا: أطلقوا عليهما النار لتستريحوا، فإنهما ما دخلا علينا إلا لغرضٍ خفيٍّ خبيث.

أسقطناهما صريعين، بطلقةٍ واحدة، واسترحنا. وبعد حينٍ نظرنا إلى أوسطنا متسائلين، لعله يكشف لنا السرَّ ويخبرنا بالغرض الخبيث الذي كان يريده العصفوران القتيلانِ. ونجونا منه. أطلنا النظر إليه لكنه لم يُجِبْ، وإنما ظلَّ يتلفّت إلى أنحاء السقف ثم زوايا الحيطان مُحتاطًا مما لا ندركه، وأطالَ الصمتَ حتى استطال ظلُّ القلقِ على

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الجدران من حولنا، وغلبنا النعاسُ.. لما صحونا وقد فاتنا ميقات الصلاة، لم نجد أَوْسطنا وَسَطنا. وكان السكون يحبس أنفاسنا. جلسنا نتوجّسين حتى صاح أحدنا بصوتٍ كالصراخ المختلط بالطحالب، قائلًا: يا قوم، الأشجارُ التي كانت العصافير تعشّش عليها قُبالة البيت وحوله، اجتُثّتْ كلها بالأمس من جذورها، فاختفتِ العصافيرُ من بلدتنا.

* * *

دوامة

البيتُ الذي سكنتُ غرفةً بأعلى سطحه، مُضطرًّا، عجيب.. في طابقه الثالث تسعُ صبايا، فيهنَّ مائساتٌ كأعواد الريحان ومترهلاتٌ كأوقات الملل. وقد وُلدن فيما يقال في «أون» أو «هليوبوليس» المسماة الآن: عين شمس، ومن هناك وفدن للسكنى هنا. وهُنَّ يتوهمن، لاهتياج هموم الهَنِ واحتدام حَرِّ الحِرِ، أنهنَّ يعشقنَ الصبيان الثلاثة الساكنين بسكينة العِنّين، في الطابق الثاني.

الصبيانُ من أنقى أهل الأرض والسماء، أو هُم بالأحرى أبرياء حتى آخر المدى. ولم يحملوا قط مُدى. ويقال إنهم وفدوا إلى هنا من «طيبة» ويقال: من «منفا» ويقال: بل من عموم البلاد. وهم يُحرِّمون النظر إلى أعلى، لأنهم يعشقون امرأةً فتّاكةً واسعةَ السُّلطة والكين، تسكن في الطابق الأول مع زوجها الذي يعشق عجوزًا شاب وليدُها،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تعيش في جُحر البدروم التحتاني منذ هلك أهلُها الغابرون.. في جُحر هذي العجوز كرسيٌّ سحريٌّ، يُوهم الجالس عليه بدوام الاستقرار، مع أن قوائمه الخشبية متداعيةٌ ومليئةٌ بالسوس الناخر. ومَن يُديم النظر إلى الكرسيِّ يصيب ساقه عطبٌ يُعطّله عن الصعود إلى سطح بيتنا البابلي الذي يتكلم كل ساكنٍ فيه، بلغةٍ لا يفهمها غيره.

المُضحكُ إلى حدِّ البكاء، بل العويل، أن حارس البيت وهو شيخٌ عاجزٌ طعنَ في العمر وطُعن عقله بمثقاب الخَرَف، يزعم أن لعنةً أصابت البيت من قبل عصر ما قبل الأُسرات. وبسببها تُستحبُّ وتستحيلُ الهجرةُ منه، والهجرةُ إليه.

* * *

شغف

نظر المسافرُ خلفه ليلقي نظرةَ وداعٍ أخيرةٍ على قريته الكاذب أهلُها، قبل هجرانه النهائيِّ لها، بلا أيِّ نيةٍ في الرجوع. كان الهواءُ الساخنُ المغبّرُ يُصعّب عليه سلوك الطريق، لكنه أصرَّ وواصل المسير حتى ابتعد كأنه شاةٌ، تهرب من ضباعٍ أهاجها الجوعُ.. بعد نهارات المشي وليلات السريان، وصل إلى أولِ الطريق المؤدي للمدينة التي يقصدها بعدما استدام عنده حلمُ العيش فيها كإنسان، وزادت ثقته في أنه سيجد هناك الحبَّ والصدق متضافرينِ في محبوبٍ واحد.

لما أجهده المسيرُ جلس ليستريح، فوجد شخصًا قد أجهده المسيرُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فجلس ليستريح.. بعد تردّدٍ بدَّده الجوارُ، وبعدما ربطت بينهما بعضُ النظرات العميقة. سأل المسافرُ جاره: من أين أنت، وما مقصدك؟ فأجابه: أنا مهاجرٌ من المدينة، وإلى القرية أسافرُ بعدما استدام عندي حلمُ العيش فيها كإنسان، وزادت ثقتي في أنني سأجد هناك الحبَّ والصدقَ متضافرينِ في محبوبٍ واحد.

* * *

وهم

الشابُّ الذي خرج من أرضه وارتحل طويلًا ثم سكن بهذه الدار الخَربة، شَابَ، ولم يجد بعد ما كان يريد.. أيامَ راهق البلوغ، كان يحلم بحبيبةٍ مُخلصةٍ يُنجبُ منها أطفالًا، فخرج ليبحث عن حلمه في أنحاء المدينة وأخذ يتسكّع بين العَرَصَات، حتى خطفته امرأةٌ بدينةٌ تبلغ من العمر الثمانين، فتزوّجها مُرغمًا.

في منتصف ليلة الزفاف أدرك أنها عاقر، وفي الصباح التالي للعُرس أخبره بالحقيقة الفاجعة طبيبٌ تحت التدريب، كان أستاذُه الفاجرُ هو الذي أجرى للعجوز التي تزوّجته عنوةً، تلك الجراحة التي حوّلتها من كائنٍ يشبه البشر، إلى خنثى. ليس برجلٍ ولا امرأة. فلمّا تحقّق الشابُّ من صدق ما بَلَغَه، أخذه الذهولُ ساعةً ثم استفاق وتسلّل مهاجرًا ليهرب من امرأته، ولكنه نسي في غمرة اضطرابه أن يُطلّقها.

رحل الشابُّ من بلاد الذهب الأبيض إلى بلاد الذهب الأسود،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وأقام هناك حينًا يسقي الناس في الطرقات التي يدور عليها، وهو يحمل على ظهره قِربة السقّائين. وظل تائهًا هناك بين النواحي، حتى التقى ذات مساءٍ على ناصية الصحراء، بامرأةٍ شمطاءَ أخذت بناصيته واستولت على لُبّه ثم أفهمته أن الجمال في الأرواح، وليس في الوجوه والأجسام. فتزوّجها، ثم هام معها في أحلامه القديمة، قبل أن يدرك أن أحلامه مستحيلات. وقد استفاق من الوهم ذات ظهيرةٍ، إذ عثر بالصدفة على صندوقٍ فيه أوراقٌ مكتوبٌ فيها بلغةٍ حديثةٍ، أن امرأته الصحراوية الشمطاء ليس لها ماضٍ، وبالتالي فلن يكون لها آتٍ. ولحظتها ثاب إلى الرشد واستفاق، فصاح في وسط الصحراء: لماذا كل هذا العذاب؟

جاوبه الهواءُ اللافح، قائلًا له: لأنها ليست أنثاك، ولأن الزيت لا يروي الظمأ ولن يمتزج يومًا بالماء، ولأن المغترب مضطرب لا يقدر على الإنجاب.. عندئذٍ صدمته هذه الدواهي، فعاد الشابُّ الذي شَابَ إلى دياره، ليجد امرأته العجوز الموتورة تُشعل في الأنحاء حرائق غريبة الاشتعال، كلما أُخمدت استعرتْ من جديد.

الشابُّ الذي صار بلا دار، دار على القرى يشكو حاله للناس عساه يجد عند سامعيه رحمةً، وأكّد لهم أنه تاب عن الحلم وما عاد يريد إلا لقيمات يُقمن أَوده ويحفظن حياته. لم يسمعه القرويون ولم يروه، لأنهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ، ولا يفقهون. في منتهى مسيره، أعني عند السلك الشائك العتيق الذي يقف عنده حارس الحدود، التقى الشابُّ الشايبُ بحكيم مطرودٍ من القُرى، لأنه لا ينطق إلا صدقًا،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وهو الذي قال له: يا ولدي الحائر لا تعبر الحدود، وعُد، فليس لك مقام في غير دارك الأولى. عُد إلى أرضك وعقلك وحلمك القديم، وتزوّج إذا شئتَ ابنةَ عمّك المليحة. فهي تحبُّك منذ أيام الصِّغر لكنها لا تُفصح عن حُبِّها، لحيائها، ولخوفها من الخلاف القديم الذي جرى بين أبيها وأبيك. واعلمْ يا جاهل، أنك مهما تعاميتَ وتصاممتَ وتمارستَ وتغافلتَ، فلن تنجو من حُكم القَدَر القاضي منذ الأزل، بأنك لن تُنجب من غيرها.

* * *

هباء

منذ سنين سحيقة، يُدرِّسُ قراءةَ القرآن في قريتنا فقيهٌ ذو بشرةٍ صافية تشبه الأبنوس، وقلبٍ صافٍ كالحليب. وهو إنسانٌ ماسيُّ الأسى، تبدو عليه من علامات الولاية آيات. ولسنوات فوّتها الفواتُ، جرى حالنا على ذات المنوال، نحفظ في الصباح ما ننساه مساءً. حتى كان صباحُ ذلك اليوم الذي دخل علينا فيه الدرسَ، صاحبُ البلدة. فزع الفقيهُ. ولكن، ولأننا لم نلحظ ما ألمّ به بقينا نهتزُّ أمامه، مثلما نفعل دومًا في ساعة الحفظ، مقتدين من دون أن ندري بالذين يهتزّون من قبلنا. أعني أولاد عمنا المذمومين، القرّائين.

انتبهنا من غفلتنا المغلّفة بالتلاوة، لحظة قال صاحبُ البلدةِ للفقيه بلفظٍ فصيح، وهو يشير إلينا: من الآن، ليقرءوا الفرقان، فقد اكتفوا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

من القرآن. ولا تتوغّل بصغارهم في الفهم ولا بالكبار، كيلا يصيبهم من وفرة الخير الخبلُ والبَطَرُ فأكون على ما يفعلون من النادمين. فقال له الفقيه: السمع يا سيدي، والطاعة.

لما سألنا الفقيه بعد انتهاء الدرس، مستغربين: ما سرُّ خنوعك وخضوعك وسمعك الدائم وطاعتك؟ قال: وهل خفي عليكم السببُ الواضح، الفاضحُ للحقيقة المُطلقة القائلة إن صاحب البلدة، يعني صاحب الأمر والنهي، والأرض والعِرْض. وأرواح الناس، وسلاح الحراس، وأجراس الكنائس، ومنابر المساجد. وتلك الكتب، التي منها تقرءون القرآن والفرقان.

* * *

حُور

في اللحظة الفارقة التي سيبدأ فيها الهجومُ، هبَّ عليهم هواءٌ باردٌ، سرى بين أعشاب الأرض ووجوههم لثوانٍ كانت قليلة. لكنها كانت كافيةً لإثارة بشائر النصر، في نفوس جماعة «عساكر الله» الذين يريدون تصفية جماعة «أجناد الله» عن بكرة أبيهم وجدّهم الأول المشترك، لأنهم خانوهم وتحالفوا مع جماعة «جند الله وعسكره» المتحاربين مع جماعة «عسكر الله وجنده».. وهذا الهجومُ، بإذن الرحمن، سيكون حاسمًا للأمر على مدى قد يمتد ساعتين، أو ثلاث، حسبما قال أمير الجماعة لآمر المجموعة المجاهدة، التي خرجت تحت ستار الليل، للنيل من أعداء الله وأحبّاء إبليس.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في الصفِّ الأول من المجاهدين المهاجمين، كان «صابر» الملقّب مؤخرًا بأبي الصبّار المرّ، يتحسّس بأنامله برد ماسورة بندقيته الآلية، ويضمّ ساعديه إلى جانبيه مُحفّزًا نفسه. استعدادًا لسماع إشارة بدء الهجوم، وما سوف يليه من تقدُّم نحو بيوت القرية النائمة بقهر كامرأةٍ آيستْ من الوصال.. قال أبو الصبّار المرّ في نفسه: سيكون هناك فيكون فتح، وسيكون سفك فيكون سبي، فإن كان الموت المرتجى كانت أبدية الحياة، في حضن حور العين.

لما شطرت رأسه الرصاصةُ الآتيةُ من ناحية الظلام المحيط بالقرية، وبعثرته أشلاء متناثرةً. لم تعد لديه أعينٌ يرى بها الحوريات اللواتي كان يحلم بهنَّ حين كان حيًّا.. ولم يعُد في جثمانه، المُخُّ الذي كان يُخيّل له لذّة الوصال.

* * *

قبح

شزرًا، نظرَ الغرابُ إلى عصفور الكناري الصدّاح في قفصه الذهبي. ثم نوى بعدما بلغ به الغِلُّ مداه، أن يصرعه ليستريح من سطوة جماله.. هبط الغرابُ بجناحيه كالأقدار، والتقط قفص عصفور الكناري بمنقاره، وطار به عاليًا وابتعد..

لما وقف الغرابُ على مقرُبة من البحر، ليرتاح حينًا قبل استكمال رحلته، سأله العصفورُ عما سيفعله به من بلايا سوف يُسميها الناسُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بعد وقوعها: القَضَاء والقَدَر.. نقر الغرابُ الأرض مراتٍ، ثم قال له: لا شيء، سأطير بك فوق البحر وأُسقطكَ فيه، فيُغرقك القفص فأرتاح منك بعدما جاوزتْ أحوالُك احتمالي، وأزرَت بحالي. اصفرار ريشك الرقيق يتعمّد أن يُذكّرني بالاسوداد الذي يسُودُني، وتغريدك يهزأ بنعيقي المُنفّر للسامعين، وتُشعرني رشاقةُ حركاتك بقبح مشيتي العرجاء على الأرض.. ردَّ عليه العصفور قائلًا: يا مسكين، اسودادُك البَرَّاقُ علامةُ البأس والقدرة، واصفراري دالٌّ على ضعفي ونحولي وطول حبسي. وصوتُك الذي يزعج البعضَ، تُحبه أُنثاك وتفهمه فتأتي إليك فرحةً، فتمرحان معًا في فُسحة الحرية. وأما تغريدي، فما هو إلا نحيبُ وحدتي، حتى يرحمني الحابسون ويأتوا إليَّ بأنثاي الحبيسة مثلي، لكنهم أبدًا لا يرحمون، ويحبون ترنيمي الحزين فيحافظون على سببه. والمشيُ يا صديقي لا معوّل عليه عندنا، لأننا طيور.. وأنت طائرٌ، عند غير الجاهلين، جميل.

لم يقتنع الغرابُ بهذا الكلام، واستكمل مهمته محلّقًا نحو البحر، وفي منقاره القفص.

* * *

جمال

فوق البحر الهادر، تحقّق عصفورُ الكناريا من حتفه ودُنوِّ لحظة موته، فابتهج ورفَّ بجناحيه وزفر بالنَّفَسِ الأخير، وفي عقله الصغير

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

دار الفكرُ دورتَه الختامية الخاتمة، وماج، فكان مما جرى لحظتها على باله فأبهجه، هذه النجوى الجوانية:

الآن أغيبُ، بعدما غيَّبتُ عن الجميع عذاباتي بنشيج غنائي، وضيق قفصي وقلّة حركتي، غافلتُ المُتغافلين والنُّبهاء عن اختلال شكلي واستطالة جسمي مع نحول جناحيَّ. وأنسيتُ الناظرين ملاطتهم برقَّتي، التي هي عينُ ضعفي وسببُ هواني.. الآن، أتممتُ كلَّ ما أردتُ..

الآن أموتُ في سلامٍ، مسرورًا.

* * *

اشتياق

لأن المُتوقَّعَ لا يُدهشُ، لم يفجؤه انهمارُ المطر المُطيَّن لتراب الطريق، ولم يُوقف سعيه.. كان قد خرج فجرًا كالمعتاد، بينما لسعاتُ الهواء الصقيعي تصفعُ السائر والواقف والقاعد، والسحابُ الرماديُّ يُنذر الناظر بإغراق الطريق الطويل المُغبّر، الذي لم تُشرق عليه الشمسُ منذ سنين. ومع أن الشواهد كلها كانت تؤكّد أن المسيرَ عسيرٌ، غير أنه مضى قُدُمًا مدفوعًا باشتياقه لمحبوبته الوحيدة، الوحيدة حسبما يتوهَّم، ليؤنسها ويأنس بها على النحو الناعم الذي رآه في خيالاته الخرقاء.

في مُبتدأ خروجه إليها، أوهمه الرَّهامُ بأن هطول دموع السماء لن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يطول، فحثَّ الخطى آملًا ألا يوقفه ما يأتيه من جهة الفوق، وما قد يعوقه من تحت التحت. بل إنه حين سمع بعينيه الرعدَ، ورأى بأذنيه البرق الخاطف، لم يرتدع. وإنما خادعَ نفسه وكذَّب حواسه واستهان، فاستكمل سبيله تحدو به الأحلام المفرطة في التمني.

المسكينُ السائرُ بغير تردُّدٍ، صار يخوض في الطين اللازب ويكاد يغرق في موج المطر الهاطل، ثم صار يجرُّ ساقيه بذراعيه، وعيناه تسبقانه إلى حيث تتوارى المحبوبة. كان سعيدًا بما يعانيه، لأنه لا يفكِّر إلا في محبوبته العذراء التي تنتظره. هي لم تكن تنتظره، ولم تكن يومًا العذراء التي يظن. لكنه لا يُريد تصديق ما يتردَّد عنها، مثل قولهم إنها تقضي الليالي تحت حارس الأسوار، مستمتعةً بشعورها بالأمن. وقولهم إنها أمضتْ ليالي لا حصر لها، تحت سنابك خيل العابرين المُرحَّب بهم في خِدرها. لم يصدِّق، لأنه حين يرى من بعيدٍ خيمتها، يخفق قلبه بشدة لطغيان سلطان حبها.. فلا يرى فوق عمود الخيمة رايةً حمراء.

* * *

مُنتهى

وكان من أعجب ما وعاهُ الرواةُ من أسلافهم الغابرين، وكتموه، أن رجلًا حاول بدء الأمور كلها من جديد، إذ توهَّم أن إعادة البدء تُجدي.. قال الرواةُ فيما بينهم، إن الرجل بعدما عصفت برأسه الأوهامُ، حمل في قاربه خمسَ نساءٍ وهرب بهنَّ ليلًا فركب بحر

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الظلمات، واجتهد في التجديف حتى وصل إلى الجزيرة التي يقف في قلبها جبلُ قاف. وقضى في سفح الجبل حياته مع صاحباته اللواتي أنهكهنّ الحنينُ، ثم أمرضهنَّ الهزال فتوالى موتهنَّ تباعًا. إلا الصغرى منهنّ، التي أنجبتْ ولدين. فلما بلغا معه السعي، سعيا لوراثته وهو حي واختلفا في توزيع التراث. وسنحت لأحدهما فرصة الغدر بأخيه الآخر، فقتله.. وحينها، رحل الرجلُ بقاربه عن الجزيرة، بعدما كان قد بلغ من دِقِّ الشيب قدرًا، جعله كشبح مرسوم بالفحم على الصخور. في طريق عودته إلى ما منه بدأ، راح يواصل التجديف ورأسه مفعم بالتجديف، حتى وصل في غده إلى أمسه.

* * *

مؤتمر

لمّا اجتمعت وفود الذباب كالمعتاد، في البقعة البلقاء، بآخر ساعةٍ من السنة الكبيسة. بدأ المجتمعون جلساتهم المفعمة بالقيام ولا قوام لها، بكلمةٍ من كبيرهم الذي علّمهم الطنين. وقد استهلَّ كلمته بعبارةٍ حاسمةٍ أشعلت حماس الحاضرين لأنها مسّت فيهم الوتر الباسليق، فقد بدأ وانتهى من كلمته بقوله دون مواربة: نحنُ أمةٌ عظيمة وقوتنا في وحدتنا، ولن يتحقق اتحادنا إلا تحت راية طائر له مهابة.

اصطخب الجمعُ الهادر، وراح يُنشد الأشعار الحماسية المحفوظة عن ظهر قلب، ومنها القصيدة العصماء التي مطلعها ومنتهاها:

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المهابة المهابة، فيها العزّة للذبابة.. والأغنية الشعبية: حياتنا كلها تَوَهان، علشان مفيش زعيم للدبَّان.. والقول المأثور: الحياة هِباب، بسبب غياب قائد الذباب.

ومع احتدام الحال اهتاج في السراديب المتآمرون، وفي العلن المستهترون، فامتلأت الأنحاء بطنين لا يُحتمل. لكنهم عادوا للهدوء والتزموا الصمت جميعًا، بل أصابهم الذهول، عندما صاحت الذبابة المعروفة لدى الجميع بميولها الماسونية وأجندتها الإمبريالية، قائلة: النسور هي الحلّ! وعندئذ، استبشر الجميع بقرب الخلاص فامتلأت بالآمال صدورهم، وشعروا بأن الفجر اقترب من بعد طول الليل، ولمحوا الضوء في آخر النفق.

قالت الذبابة المعروفة بأنها تميل إلى المعارضة، حتى إنها تعترض أحيانًا على معارضتها، إن النسور لا تناسب الذباب لأنها ليست مثله راقية، وهي عفنة الطبع لأنها تقتات على الجيف ونادرًا ما تصطاد، والأنسب أن يكون الملك على شعوب الذباب أحد الصقور. وقد طاب هذا المقترح لشباب الذباب، فراحوا ينشدون الأشعار الحماسية المحفوظة عن ظهر قلب، ومنها القصيدة العصماء التي مطلعها ومنتهاها: ذاب الذبابُ من اشتياقه للنور، ولن يرحم عذابه إلا حُكمُ الصقور.. والأغنية الشعبية: زماني المنيّل مُمل وفقري، علشان بعدت عني يا صقري.. والقول المأثور: لن يرى النور، إلا عبيد الصقور.

تقافز على منصات المؤتمر كثيرون، وعلا بين الذباب الضجيجُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

والهرجُ. فانزعج نسورُ السماء المحلّقون، المحدِّقون فيما تحتهم، المحدقون بكل جيفة. فهبطوا بأجنحتهم القوية آملين في وجبة شهية، لكنهم اكتشفوا من فورهم أن الذباب لا لحم فيه يسدُّ الجوع، ولا يطيب أكله مع الأرز أو الخبز. فاشمأزوا من المكان، وأعربوا عن نيتهم الرحيل عن تلك البقعة المجدبة، للبحث عن موضع آخر وفير الرمم.. فبكت الرقيقات من الذبابات، وانتحبن حينًا متحسراتٍ على سوء المآل.

حاول وفدٌ من عقلاء الذباب الاتصال بالصقور، عساها تكون بديلا عن النسور، فلم تنجح مساعيهم.. واكتشفوا أن الصقر من طبعه، عدم الرضا عما يُشين.

مصير

مما حكاه الأشعريُّ الكبير أن ثلاثةً من الإخوة تعرضوا لحادثةٍ مروّعة فماتوا، وكان أكبرهم تقيًّا نقيًّا مطيعًا، والأوسط فاجرًا، والثالث طفلًا صغيرًا لم يبلغ الحُلُم. فقالت لهم مصائرهم إن الكبير سوف ينعم في الفردوس مع أمثاله من المتّقين الأنقياء الطائعين، والفاجر سيكون مع الفُجّار والكفّار في النار، وأما الطفل فلا حساب له فلن يكون له نصيبٌ في جنةٍ أو جحيم.. الطفل اعترض على هذا المصير، بحُجّة أنه قُطع بغير إرادةٍ منه عن استكمال المسير، ولو سار سنوات في درب الحياة، لكان قد اتقى كأخيه الأكبر فاستحق الثواب الذي بلا حساب.. قيل له: لا تحتجّ على القَدَر

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بغير علم ولا هُدى ولا كتاب مبين، وما يدريك بالغيب يا مسكين، فاحمد الله اللطيف الخبير الذي وسعت رحمته كلَّ شيءٍ، سبحانه، لأنه لطف بك فقبضك قبل أن تكبر فتفجر فيعذِّبك ربك عذاب المُنكرين.

عندئذٍ ثاب الطفل وأناب، بعدما أدرك أن موته المبكر كان فيه رحمة واسعة من الواسع العليم. وارتضى بالمحو مع النجاة من العذاب، حين علم أنه كان سيبعد عن الصواب وسواء السبيل، فقال في نفسه الفانية: عليَّ فعلًا أن أرضى بالحرمان من روضات الجنات، مادامت الأقدار كانت ستقودني إلى النار وبئس القرار.

الأخ الأوسط زعق محتجًّا، فقال: فلماذا لم أمت طفلًا، فأرتضي مثل أخي الصغير بالحرمان من روضات الجنّات، بدلًا من بقائي لملاقاة تلك الأقدار التي قادتني إلى النار!

* * *

مصيرٌ مجهول

فلما طال الأجلُ بالحَجّاج فكان منه ما كان من قتل الناس بلا حساب لحساب السلطان، وتهديم الكعبة بآلاف من قذائف المنجنيق، والفتك بالصحابة والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. توهّم المهووسون أن هذا الرجل خالدٌ ولن يموت، لكنه مات، فابتهج رجل من السواد وأراد الاحتفال بالتشفّي فصاح حالفًا بالطلاق أن هذا الميت مصيره

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لا محالة النار.. ذهل السامعون من يمين الطلاق ولاموا الرجل على الفلات لسانه، قائلين: وما أدراك أيها الجاهل، بما سوف تئول إليه المصائر؟ فردَّ على سؤالهم بالسؤال: فهل امرأتي الآن طالق؟

قالوا: عليك بسؤال العلماء وطلب الفُتيا من الفقهاء، ولا تمسّ امرأتك حتى تصل إلى يقين، وليس لك الآن إلا الذهاب لاستشارة ابن سيرين.. اندفع الرجل المندفع إلى مجلس الشيخ الجليل، فلم يجد عنده إجابة إلا هذا القول العاقل الذي فحواه: يا ولدي، الحَجّاج فاجرٌ بإجماع الأمة، لكنه من أهل القبلة ولا يجوز الحكم عليه بالكفر، فلا يمكن أن نقول إنه في الجنة أو في النار.

ـ أوَليست النار أولى به، بعد كل ما فعل؟

ـ النار ياولدي والجنة، عقابٌ وثواب لا يقرّره إلا الله.

ـ فما بال امرأتي التي في الدار، هل يقع عليها يمينُ التطليق أم هي حلٌّ للنكاح الحلال؟

ـ الله أعلم، ومَن قال ذلك يا ولدي فقد أفتى.

ـ يعني هذا الحَجّاج يحيّرنا في حياته باقتراف كلِّ مهول، وفي مماته يحيّرنا بمصيره المجهول.. فما الحلُّ؟

ـ لا أدري، يمكنك يا ولدي سؤال ابن عبيد.

أسرع الرجل المتسرع، الحائر، إلى مجلس عمرو بن عبيد فوجده هناك منهمكًا في بيان أن العقل ضابطٌ للشرع، وهو مناطُ التكليف

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وسرُّ التشريف وسبيل الوصول إلى أي تعريف.. فاستبشر المستفتي وفاض بما عنده، مستخبرًا عن صحة يمين طلاقه، فضحك منه ابن عبيد وقال له على رءوس الأشهاد دون احتياج لحُجةٍ شرعية أو استشهاد: اذهبْ أيها الرجل وضاجع زوجتك بلا قلق، فإن الله لو غفر للحَجّاج فلن يُعاقبك على الزنا.

* * *

المُغرّر بهم

الراوي العليم بخفايا الحكايا ونوادر الوقائع، جلس مرتاحًا وحوله كلُّ ما يحتاجه: الوسادةُ التي يتكئ عليها حين يعود بظهره إلى الوراء كي يحكي ما يأتيه وحيًا من ربّات الفنون.. كوبُ الأنيسون الدافئ الذي يحتسي منه رشفاتٍ سريعة حين ينهمك في الحَكْي.. إبريقُ الماء الذي يعبُّ منه كلما انتهى من مقطعٍ مشوّق.. السامعُ.

استهلَّ الراوي كلامه في السامع، بقوله إنه سيحكي الليلة واحدةً من عيون الوقائع المثيرة للعِبرات، المسيلة للعَبرات. هي قصة الأخوة المغرّر بهم، الذين ارتحلوا في الصحراء غربًا حتى وصلوا إلى حافة اليابسة، ومن هناك أبحروا في سفينة أخذتهم إلى قلب المحيط الواسع المسمى قديمًا: بحر الظلمات.. قال الراوي: في قصتهم أقاويل كثيرة ومرويات متضاربة، منها ما يتعلق بعددهم الذي قيل إنه ثلاثة، وقيل بل كانوا سبعة. ومنها سبب خروجهم الذي قيل إنه البحث عن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الرزق، وقيل بل أرادوا استكشاف المستتر المجهول. ومنها موضع ركوبهم البحر حيث قيل إنه كان من بلدة «طنجة»، وقيل بل غادروا من «أغادير»، وقيل من غيرهما. ومنها أسماؤهم التي قيل إنها كانت مشتقة من الحمد «أحمد، محمد، حامد، محمود، حمدان، حمدين، حمّاد»، وقيل إنها كانت من مشتقات الشكر الكثيرة: «شاكر، عبد الشكور، شكري، شكور، شكران، شكرين، شكّار».. وقيل، بل كانت كلها مشتقة من الفتح.

رأى الراوي في عين السامع طيف الملل، فاعتدل واستوى في قعدته وقال بثقةٍ ما بعدها وثوق إنه سيحكي فقط عما هو موثوقٌ، وعمّن هم الثقاةُ الذين صحَّ عنهم النقل سابقًا عن سابق. وبدأ الحكاية بحسم الخلافات المثارة حولهم، قائلًا إن عددهم كان خمسة. وإن ما قيل في سبب خروجهم كله محض توهُّمات وتهويس وتدليس، فما كانوا في حقيقة الأمر يبحثون عن الرزق لأنهم أصلا من الأغنياء الموسرين، وما كانوا للمستتر المجهول يستكشفون لأنهم كانوا من قبل سفرهم يعرفون أن خلف هذا البحر المحيط أرضًا خضراء، تسكنها نساءٌ فاتناتٌ لا يشتكين إلا من ندرة وجود الرجال. وإن ركوبهم البحر لم يكن من طنجة ولا أغادير، بل من بلدة مجهولة تنام على حافة المحيط المسمّى اليوم بما ليس له معنى: الأطلنطي! ظنًّا بأن تحته قارة غارقة اسمها لا معنى له: أطلانطا! وهذه الأكاذيب أطلقها أول مرة، رجلٌ كذّابٌ أشِر كان يسكن في طنطا.. وأما أسماؤهم الحقيقية فلا شأن لها باشتقاق أو مجاز، وكلها أتت في الأصل من أرض الحجاز، فالخمسة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

عبادلة أكبرهم «عبد اللات» يليه «عبد الله» ثم «عبد الإله» ثم «عُبيد» وكان اسم أصغرهم سنًّا: عبود.

انقطع كلام الراوي، لأول مرةٍ في عمره، وأخذته صدمةُ الدهشة فما استطاع أن ينطق بكلمةٍ. حين نطق السامع، لأول مرةٍ في عمره، قائلًا بهدوءٍ ورويّة: وكيف أعرف أنك صادقٌ فيما تقول وتروي، وما دليل صحة تلك الرواية بالذات إذا كانت الروايات الأخرى قد تضاربتْ وتشعّبتْ وتشعّثتْ؟ ثم استفاق الراوي فقال:

- هل تشك يا كافر فيما هو مكتوب؟

- هذا المكتوب تم تدوينه بعد مائتي عامٍ من وقوع القصة المزعومة.

- مزعومة! كيف تجرؤ على إنكار ما هو معلومٌ من الكتب بالضرورة؟

- الكتب متضاربة، والشكُّ مطلوبٌ لأنه سبيل الوصول إلى اليقين.

- شكٌّ ويقين! هذا قول الغابرين، وعلى قائله عقوبات مريعة قررها السلاطين.

- أريد الحقيقة..

- بل تريد العبث في الثوابت، وتودُّ تهديم القواعد.. وهذا يستدعي استدعاء عساكر السلطان، وإنزال العقاب العادل.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ عادل! إذا كان السلطان نفسه غير عادل، فكيف الحال مع عساكره، ومع أحكامه، ومع عدم إحكامه لما يبثُّه الراوي في السامع منذ قرون طوال من الزمان!

ـ أنت تجاوزت كل الحدود.

زعق الراوي بصوت كالصراخ، فأتى عساكرُ السلطان الذين كانوا يتلصصون في الأنحاء، فاقتادوا السامع الشكّاك إلى المصير الذي اختلفت فيه الروايات، فما عاد أحدٌ من السامعين من بعد ذاك اليوم يستوقف الراوي بسؤال أو يشكُّ فيما يرويه.. قال الراوي: وفيما وقع مع الشكّاك الذي طلب اليقين، أقاويل؛ منها أنه لم يصل إلى مجلس السلطان لأن واحدًا من الجنود دفعه في الطريق، فوقع، فمات، فارتاح الناس من شره. ومنها أنه قدّم للعساكر رشوة فأطلقوه في الطريق وزعموا أنه فرَّ في غفلةٍ منهم، وهاجر من البلاد سرًّا فاستقر في كندا. ومنها أنه فرَّ فعلًا من العساكر الأشاوس الذين لم ينتصروا في أي حرب، لأنه استعان بأعوان له من الجنِّ كان يسخّرهم لخدمته في الخفاء. ومنها أن السلطان أحال الأمر إلى قاضي القضاة فحكم على منكر الروايات بالإعدام، لوأد الفتنة وتحقيق الأمان، للسلطان.. ومنها روايات أخرى كثيرة، كلها مكتوبة، لكنها متضاربة فيما بينها.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المجموعة الرابعة

الحكمةُ المؤنَّثة[1]

(١) كانت هذه النصوص القصصية، السبعة، قد كُتبت في ابتداء العام ٢٠١٢ (في غمرة الاضطراب الذي عصف بالبلاد) ونُشرت في غير موضعها، بآخر كتاب «فقه الثورة».. فحذفتها من هناك، لأنها هنا أنسب.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ترانيمُ «إِسّتْ» المسماة التباسًا إيزيس◊

وحيدًا، ومتمهِّلًا مع آخر الليل، مشيتُ شاردَ الذهنِ عند حواف البحر السكندري البديع، الممتد من بدءِ الزمان إلى قُرب نهاياته. كنتُ في غمرة الغياب غارقًا في تأمُّل التماس بين النهايات والبدايات، وفجأةً تسمَّرتْ قدماي عند الطرف الشرقيِّ لشاطئ الحيِّ الملكي، المسمَّى اليوم «الشاطبي»، وكان يسمى قديمًا «البروخيون»، فهناك انتبهتُ بغتةً من غفلاتي، حين لمحتهم قبيل الفجر يجلسون في سكونٍ وقورٍ، بآخر اللسان الصخري الداخل إلى قلب الموج الهادئ، على مسافة مائة مترٍ من طريق الكورنيش أو أزيد من ذلك بقليل. عددُهم عشرة. رأيتهم كأنهم نجماتٌ بعيدةٌ تلمع في آخر الكون، وترنو إلى الأفق الشرقيِّ ترقُّبًا لظهور أنوار النهار التي قد تؤخِّرها سُحُبٌ ثقالٌ، مهيبةُ المنظر، تجلِّل السماءَ وتحجب عن العين الأضواء.. لو لم أكن متيقِّنًا من صحوي، لتوهَّمتُ أنني في تلك اللحظة أحلم أو أتنقَّل بين أضغاث الأحلام، لكنَّ النسمات المتواليات، وصوتَ الحصى تحت قدميَّ، والبيوتَ التي تنام من خلفي، وانتباهي؛ كلها مؤكِّداتٌ لما أراه، ونافياتٌ لأيِّ شك.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أردتُ الاقتراب منهم أملًا في معرفة خبرهم، ومشاهدة وجوههم المولية إلى الأفق البعيد، واكتشاف سرِّ اصطفافهم متجاورين عند آخر اليابسة. ثم قلتُ في نفسي: لا داعي للعناية بالأمر. ولا بأيِّ أمر، فلعلَّهم صيادو أسماك جاءوا مبكرين، أو هم مخبولون يبحثون عن لآلئ نائمة على قعر الماء، أو هم غرباءُ أعْيَاهم التيهُ مثلي.. لكن الحقيقة تجلَّت بعد حينٍ، وخالفتْ أوهامي جميعها وكذَّبتِ الظنون.

إنهم لا يتلفَّتون. يحدِّقون في المدى البحري، وهم يُولون ظهورهم إليَّ وإلى الشوارع والبيوت، حيث الأهل الغارقون من خلفنا في سُبات الثبات. الأهلُ الهانئون بنومهم على الأسِرَّة المغرقة المغطاة بألحفةِ الغفلة، يغطُّون في الوسنِ المستجلب للأحلام. الحلمُ سُلوانُ المحروم. بلا قصدٍ، أرجعتُ بصري إلى حيث النائمون المتحصِّنون من خلفي خلف جدرانٍ غير حصينة، مطمئنين في بيوتٍ تئول إلى الانهيار، وتتوقُ إلى السقوط. الحنينُ إلى الأهل جارفٌ. أرجعتُ البصر إلى الوراء كرَّتين، فارتدَّ إليَّ خاسئًا وهو حسير. وغلبتني الأماني لمّا لم أجدْ غيري على مقربةٍ من هؤلاء الجالسين، فنويتُ التقدم نحوهم لعلَّني أرى ملامح وجوههم، أو أجد لديهم هدًى يُباعد عني الضلال المبين.. وقفتُ قريبًا منهم، من خلفهم، فما اكترثوا. فكأنني بقُربهم غير موجود، أو على الحقيقة مفقود.

عند اقترابي منهم أدار رأسي الدَّهَشُ، فتخشَّبت ساقاي، ومضى على وقوفي وقتٌ لا يقبل الحساب. ثم غمرني إليهم شغفٌ، فكسَّرتُ عِصِيَّ الرهبة وعيدانَ الإحجام، وتقدَّمت إلى مجلسهم بخطى الوجل وأقدام

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الاضطراب، وقد اجتاحني التردُّدُ بين خواطر الابتعاد وواردات الثبات. جلستُ حينًا، إلى الوراء قليلًا من موضعهم النائي، فوجدتني بهاجَ السريرةِ يصدُّني تخوُّفٌ لا سبيل إلى صَدِّه.. مشدوهًا نظرتُ إليهم أمامهم يلتفتون إليَّ أو يتلفَّتون، فلم يكن منهم إلا السكونُ. لم أكن قد عرفتُ بعد، أنهم لا يحرِّكون سكينتهم بالتفاتةٍ إلى فوقٍ أو يمينٍ أو يسارٍ، وليس لعيونهم نظرٌ إلا لجهة الأمام.

طنَّ في مسامعي صوتُ الصمتِ المحيط والموجِ القريب، حتى قلق جلوسي على تلك الصخرة الجرداء، قاسية الاستدارة، فلم أجدْ في سكون الخمول موئلًا ولا ملاذًا. وزادني الانفرادُ حيرةً. بعد حينٍ هزّني إلى الاقتراب تشوُّقٌ وتشوُّفٌ إلى النظر، ولو بلمحةٍ، إلى وجوههم الناظرة إلى نهايات الماء الهادر الذي منه ابتداء الوجود، وبه استبقاء كل حيٍّ موجود.

الهيبةُ مانعةٌ، والتوقُ دافعٌ. خلعتُ نعليَّ تأدُّبًا وطرحتُ عني أحكامَ الكونينِ؛ الأرضي والعلوي، واقتربتُ منهم رويدًا حتى جلستُ بجوار أقربهم مني، فكنتُ منه إلى الخلف قليلًا، ثم استجمعتُ ذاتي وعثرتُ على صوتي فألقيتُ السلام عليهم. لم يردّ أحدٌ منهم، ولكن بدا أن أقربهم رضى بقُربي. فقد رأيتُ منه بعينِ قلبي، قبولًا بدا لي مثل طيف ابتسامةٍ تشرق من جانب وجهه، فتزيده إشراقًا على إشراق.. قلتُ له إن أنوار حضوره تحرِّك ركام شوقي، فهزَّ رأسه راضيًا. وسألته عن سبب سكوتهم عن الكلام، وصمتهم عن رَدّ السلام، فقال بعد تريثٍ: ألم يخبرك الشهابُ الإشراقيُّ، بأن أمثالك ليسوا أهلًا لمخاطبتنا؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كلامه لا يشبه أيَّ كلامٍ، ونبراته لا مثيل لها بين كل مسموع. ولكن الشُّهُب لم تخبرني بشيء، فما مراده بما قال؟ احترتُ حينًا، ثم أعدتُ على عقلي عبارته: «أمثالك ليسوا أهلًا لمخاطبتنا» وسعيتُ حثيثًا وراء المعنى الكامن خلف تلك الكلمات، حتى لمحتُ في نفسي صدى للعبارة. كأنني سمعتها من قبل أو قرأتها قديمًا، ولكني نسيتُ. المعرفةُ هي التذكُّرُ، وما الجهل إلا النسيان.

«أمثالك ليسوا أهلًا لمخاطبتنا»، صَفَتْ نفسي وأفاض باطني على باطني بأنوارٍ برَّاقة أشرقتْ بها بغتةً ذاتي، فتذكَّرتُ يومَ قرأتُ ذلك في رسالةٍ للشهاب السهروردي كتبها لنا قبل ثمانمائة سنة، وجعلها للقارئ بعنوان: حفيف أجنحة جبرائيل.. كيف غفلتُ لوهلةٍ عن ذاك؟ لا بد أنها طبيعة الإنسان المأخوذ اسمه من النسيان، وطباع القلب المشتق أصلًا من التقلُّب. هِمتُ مبتهجًا لمَّا فهمتُ فجأةً أنني في حضرة العقول العشرة العُلوية. وأن محدِّثي الأقرب مني موضعًا، هو الذي أسماه قدماؤنا «العقل الفعَّال في الإنسانية» وهو الذي منه تفيض نوادرُ الأفكار وفرائدُ المفهومات، أحيانًا، على عقول الناس.. فَرِحتُ بقربه، ورجوته بصمتي وأذني المصغية، أن يزيد من لمعات المعاني ما يشاء ويريد. ثم أدركتُ أنه لا يبادر وإنما تحرِّكه منا الحيرةُ، إذا صيغت جيدًا في سؤال.. وليس له جواب، حسبما قال الحكماء القدماء، على كل سؤالٍ.

قلت: ما سرُّ الجوهر الإنساني؟ فالتفتَ نحوي كلمحٍ بالبصر، فإذا وجهه كشموسٍ كثيرات أطلَّت على ليلٍ مُدْلهمٍّ بهيم، وقال: الأمومةُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أصلُ هذا السرِّ. والتجلِّي الأتمُّ له، يكون في الأنوثة التي منها الذكورة. لكن الجوهر الإنساني، انطمر أصلُه تحت غبارِ أهالته القرونُ الغابرة، حين صَخَبَ الغلمانُ وهم غافلون، عن أن الأنوثة والذكورة صِنوان. فما كان منهم إلا ثورانُ الحِدثان، بغير أدبٍ ولا تحنان. فلما صاروا رجالًا، رغبوا في الفَصْمِ المفضي إلى الاستعلان والاستيلاء، ومن هنا وقع عليهم الحرمانُ والاستلابُ وغيابُ معنى الإنسان. تغابوا حتى صاروا الأغبياء، وافتقرتْ أرواحهم بعدما كانوا الأغنياء الأصفياء، فلم يفهموا أن الأمومة أصلهم وأن جميعهم أمٌّ وابن «منهما كُلُّ أمٍّ وابن، للابن اشتياقٌ وللأُمِّ حِضْن، ولهما الاستيلاد والميلاد[1]».

وأفاض بما مفاده: ما امتاز الإنسانُ عن بقية ساكني الأكوان بالأمومة، بل بإدراك سرِّها الذي سَنَحَ ثم صار اليوم منسيًّا، بعدما استعلن في ابتداء الزمان وما كان آنذاك مخفيًّا عن الإنسان. لكنه بعد حينٍ نسي، و فَقَدَ السِّرَّ، ففسدت منه السريرة واحتار وقدَّس من بعد ماء النيل النار. عَبَدَ رَبَّ الجنود وغفل عن العهود، وسَهَا مع دوام الغفلة عن السطوع الأول لحكمة الأمومة في سماوات السمو. وللأسف، نُسيت «إسّت» ونُطِقَ اسمها بالالتباس والتلبيس: إيزيس.

«إسّت».. المصريُّ القديم في الوادي عرفها بهذا الاسم، وعرف ما لها من قَدْر، فعاش زمنًا في سلامٍ وتحنان. أعطى لها التقديس، فأعطت

---

(١) العبارة بين القوسين، من الفقرة التي وردت بكاملها في موضعٍ ما، من رواية «النبطي».

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

له الرُّقي. للنساء نصيبٌ من جوهر الإنسان، وللرجال نصيب. فكل امرأةٍ هي «الست» لأنها في الأرض صورة «إسِّت» المستولية على السماء، وليس لاسمها معنى في لغة المصريين القدماء، إلا المستوية على كرسي الألوهة الأولى.

«إسّت».. هي سرُّ الكيمياء والتحنيط، ومُحدثةُ الجمع بعد التفريق، ومنها ميلاد النور «حور» المسمى «حورس» بحَبَلٍ تمَّ من دون تماسّ. فهي أمُّ النور مع أنها البتول، وصاحبة الأسرار التي بها الأوهام تزول. لها من الأسماء ما لا يمكن إحصاؤه، وليس لها من الرموز إلا صورة الأفعى المقدسة، التي صيَّرها اليهودُ مُدنَّسة.

«إسّت».. بأسًى وحنوٍّ تنظر من عليائها بعينٍ دامعةٍ، فترى النساء يرتدين ثوبًا صنعته أوهامُ الرجال، فتحزن من أجل ذلك الذَّكر الذي فقد أنثاه. مع أنها غاية مطلبه وكل مُناه، ولولاه ولولاها ما وقع المعنى ولا تحقَّقتِ الحياة. السعيُ البائس للإنسان، أنساه ما كان في زمنٍ قديمٍ، حنونٍ، فظن أن القسوة والسلاح يحققان الأمان. وما الأمنُ، إلا ما يفيض على البشر من السمو الكامن في جوهر الإنسان.

* * *

من فوق السُّحب، تبدَّت على استحياءٍ أنوارُ النهار فبدَّدتْ سكون السريرة ومجلس الأسرار. السرُّ يبدِّده صَخَبُ الناس. ما صرتُ قادرًا على رؤية الذين كانوا قبل قليلٍ قُرب موضعي جالسين، وغاب عن سريرتي مشهدٌ كنتُ فيه هانئًا أستزيدُ، وما عاد منه الآن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وزيد... متحسِّرًا، قمتُ من جلستي عند طرف اللسان الصخري، بلا أنيسٍ، لكنني رضيتُ بأنني قد تحقَّقتُ من أنه لا عبرةَ بالكثرة، عند ظهور وحي الوحدة. ووحيدًا عدتُ من حيث كنتُ، ورحتُ أترنَّم سرًّا بأغنياتٍ قديمةٍ كانت مقدَّسة. ولطالما تلاها قدماؤنا من أهل مصر بلسان التبجيل، لأنها حديثُ الربة التي غابت لغفلتنا في غياهب الماضي، فمضت من بعدها القرونُ والأزمانُ ملتبسةً. قاسيةً في عُنفها، مفعمةً بالفَوْت. الترنيمةُ الأولى محفوظةٌ من أيام الدولة المصرية القديمة، وهي تدعو الغافلين إلى صَرْف الأسماء الكثيرة إلى المسمَّى الواحد، وتهيب بالتائهين أن يهتدوا بنجوم بواطنهم، فيعرفوا الأصل ويدركوا كيف وقع من بعده الفصل. وأما الترانيم التاليات، تالية الذكر، فهي موروثة من زمن المملكتين الوسطى والحديثة. وكلاهما زمنٌ مصريٌّ بديعٌ لم يشن حربًا باسم الإله، ولم يمارس عنفًا لإعلاء معتقدٍ:

أَنَا أُمُّ الأَشْيَاءِ جَمِيعًا

سَيِّدَةُ العَنَاصِرِ

بَادِئَةُ العَوَالِمِ

حَاكِمَةٌ ما في السَّمَاواتِ مِنْ فَوْقٍ،

ومَا في الجحِيمِ مِنْ تَحْتٍ

أَنَا مَرْكَزُ القُوَّةِ الرَّبانِيَّةِ،

أَنَا الحقِيقَةُ الكَامِنَةُ من خَلْفِ كُلِّ الإلهاتِ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

والآلهةِ، عِنْدِي يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ

فِي شَكْلٍ وَاحِدٍ، وهَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ

بِيَدِي أُقَدِّرُ نُجُومَ السَّمَاءِ

ورِيَاحَ البَحْرِ

وصَمْتَ الجحِيم،

يَعْبُدُني النَّاسُ بِطُرُقٍ شَتَّى،

وتَحْتَ أَسْمَاءٍ شَتَّى،

لَكِنَّ اسْمِيَ الحقِيقيَّ هُوَ إيزيس.

بِه ارْفَعُوا إِلَيَّ أَدْعِيتكم والابتهَالَات.

* * *

أنا أَصْلُ الطبيعة،

أنا الأُمُّ الكونيةُ،

سيِّدةُ كُلِّ العناصر..

عُبِدْتُ بطرقٍ شتى،

وأُطْلِقَتْ عليَّ أسماءٌ كثيرة،

لأنَّ جميعَ أهلِ الأرضِ يقدِّسونني.

الفريجيون سَمَّوْني بيسينونتيكا؛ أُمَّ الآلِهَةِ.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

والأثينيون سَمَّوْني أرتميس.
وعند سكانِ قبرصَ، أنا أفروديت.
وفي كريتَ، أنا آناوكينيا
آخرونَ عرفوني باسم: بروسيبيرين. وباسم: بيلونا. وباسمِ: هيكاتي. وباسمِ: راموميا. أما المصريونَ المتفوِّقون في العلمِ القديمِ،
وفي عِبادتيَ بِمَا يليقُ بأُلوهِيَّتي،
فقد دعوني باسْمِي الحقيقيِّ: إيزيس.

* * *

يَوْمَ أُفنِي كُلَّ ما خَلَقْتُ
ستعودُ الأرضُ محيطًا بلا نهاية،
مِثْلما كانتْ في البَدْءِ.
وَحْدي، أنا، سَأبقى
وأَصِيرُ كما كنتُ قبلا
أَفْعى،
خفيةً،
عصيةً عن الأَفْهامِ[1].

---

(١) هذه الترانيم، وبهذه الصيغة تحديدًا، أوردتها بين ثنايا رواية «ظل الأفعي» بعد العكوف على نصوصها المتفرقة في لغاتٍ مختلفة، وفي صيغ لغوية متعدِّدة. فجعلتها على تلك الهيئة، وحافظتُ فيها على روح النص، وعلى مساره ومراميه البعيدة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ «هيباتيا» الفاضلةُ، الفاصلةُ بين عصرين ◊

الليلةَ الماضية تولاني الضَّجَرُ من هجمات الهموم، فأردتُ السفر. كان قومي يعجنون خبزهم بدقيق الهوس الممزوج بالهواجس وشوارد الفِكَر، ويتعجَّبون من أخبار الحبلى التي ألقت على الأرض حملها مَلَصًا مريعًا، بعدما تقطَّعت جدائلها الجاذبة للأمل.. فتركتُهم كلهم عند مغيب شمس اليقين، وأخذتُ زوَّادتي الخاوية وخرجتُ من خوائهم الممتد فيهم منذ قرونٍ حالكةٍ كقرون الخرنوب، وخلافهم حول الحاكم المطلوب تنصيبه رئيسًا لبيت الدُّمَى الدامع، الدامي، بعدما أسكتوا قسرًا مناديًا عاقلًا كان يصيح فيهم: لا تترقبوا المجيء والأبوابُ موصدةٌ، ولا تتمنوا الأماني. فلا عبرة برئيسٍ للبيت لن يكون رأسًا، ولا معنى للرأس من دون بَدَنٍ صحيح.

في طريق خروجي من الباب الخلفي للبيت، رأيتُ في حوش البيت صبيانًا يلعبون في خلالِ ظلال المساء التي امتدت، بعصيٍّ مُعوجَّةٍ وكُرَةٍ مشوَّكةٍ غير مستوية الاستدارة. ورأيتُ وراء الصبيان صبايا ينتحين جانبًا، وينتحبن، لأن أجلهن تزوَّجت الشيخ الصحراوي الذي اغتال حبيبها واغتصب أمها واستولى على أرض أبيها. ورأيتُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الأمهات صامتاتٍ يتحلَّقن حول مغنيةٍ غجريةٍ، تشدو متحشرجةَ الصوت بكلماتٍ مبهماتٍ تشتبك بشعرها المنفوش. ورأيتُ رضيعًا يتكلَّم في المهد قائلًا إن أمَّه هجرته، وحَرَّمتْ عليه قبل هجرانها المرضعات، وتركته يجوع.

قبل وصولي إلى بوابة الهروب الليلي المعتاد، ناداني رجلٌ جاءني من أقصى المدينة يسعى. أتى يسري متوكئًا على منسأةٍ تأكلها دابةُ الأرض الأكول، وتوشك على كسرها، لكنه غافلٌ لا يدري بما يجري.. بأنفاسٍ تتهدَّج واستعطافٍ فادح الأسى، استوقفني ليخبرني بأن الملأ يأتمرون على أنفسهم نهارًا، فإذا أحاطت بهم ظلالُ المساء استلقوا منهكين وأخذهم نومٌ غير رحيم، وهم في نومهم موجوعون. وقال إن أبقراط قال: ما دام النوم في الأمراض المزمنة يسبِّب وجعًا، فذلك نذيرُ الموت.

وقال أيضًا إنه لمح في وهج الظهيرة قومًا يتخفَّون في ضوء الشمس، ويدبِّرون فاجعةً لترويع السكان الآملين في الأمان. وقال إن مَنْ راح استراح، لأن موتًا كثيرًا يهرول بين خيام الأقارب ويجوس بأفيال المجوس خلال الديار. وقال إن الموت صار رحيمًا، يحمل الراحة هديةً لليائسين، ويترك الذكرى للحالمين والفرص الرخيصة للرخيصين.. وقال غير ذلك كثيرًا، فألقيتُ أقواله كلها في بئرٍ سحيقة عند الناحية المسماة «لا مكان» وتأسَّيتُ بأن قومي قد يبرءون، وسوف ينسون الليلة أن موعدهم الصبح، وسوف يئول نسيانهم إلى نسيان. لأن الإنسان والنسوة والناس، مشتقةٌ كلها من النسيان.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

عند بوابة البلدة حبسني الحراسُ، ونهرني كبيرهم الذي علَّمهم السحر والحراسة، وصرخ في وجهي زاعقًا بالمعتاد: «ألَمْ ننهك عن العالمين» ونحذِّرك مرارًا من مفارقة البيت ليلًا؟ فقلت معتذرًا إنني أهوى السهر، وأميلُ إلى مشاهدة أصول الصور، وسوانح الأسرار المتجلِّية من بعد الغروب إلى وقت السَّحَر، السِّحري. فأمرَ بحبسي.

بعد ساعةٍ سكتتِ الأصواتُ، وسحبتني من محبسي نسماتُ المساء، واتسع أمامي المدى.. سَرَتْ بي النسماتُ إلى الشاطئ، حيث اللسان الصخري الذي تتنزَّل عند حافته البحرية العقولُ العشرة، فلم أجد منهم جالسًا في الموضع غير واحدٍ. سألته عن الباقين ولماذا لا أراهم، فقال: لا شأن لك، ولا لك إلى رؤيتهم سبيل. اعترضتُ عليه بأنني رأيتهم هنا من قبل، فلم يَرُدّ، ولما رجوته بلسان الحال وآلام السؤال، قال: بل رأيت ظلالهم الممتدة فيَّ، لأنني وحدي العقل الفعَّال في الإنسانية، وما فوقي عقولٌ مُفارقة، لا قدرة للبشر على مشاهدة أنوارهم التي تدكُّ إذا تجلَّت جبالَ المحسوس. فلا تنشغل عما يمكن لك، بما هو محجوبٌ عنك.

عصفتْ من حولنا ريحٌ كأنها إعصارٌ في قلبه نارٌ، واهتزَّت الأركانُ وتأرجحت الموجوداتُ. فوجدتُ أن الحالَ قد يسمح بأمرٍ طالما كنتُ أبغيه، فبسطت ذراعيَّ حتى صارا بعد حينٍ جناحين حلَّقتُ بهما فوق النواحي، ورأيتُ بعين عصفورٍ سَطْحَ البيوت النائمة، وسقف الفنار الذي صار قلعةً للملوك، وطرتُ فوق الميناء الشرقي الذي لم يسترح

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

موجه يومًا من التحرُّش بصخور الحواف، ورأيتُ في ماضي الطرقات امرأةً أعشقها، تموت.

بعد حينٍ هدأتِ الريحُ فهدأتُ، وعدتُ من الطيران إلى الموضع المفروش بالصخر والرمال، حيث يتجلَّى لي العقل الفعَّال. وقبالته جلستُ فوق صفحة الماء، فرأيتُ على ضوء النجوم وجهه الفياض بالنور، وتحقَّقتُ من ملامحه الجامعة بين وجوه بني الإنسان. النساء منهم والرجال، والمعمَّرين والأطفال. فعرفتُ أن سوانحه مستباحةٌ لكلِّ متطلِّعٍ يستطيع أن يجلو من قلبه المرآة، فتنعكس عليها صورُ الإدراك وأصول المعقولات، فيحظى بهِبَات الفهم وهَبَّات الأفكار الفريدات. ولأنه يحتفي بالسؤال الجيد، فقد استفسرتُ منه عما رأيته حين حلَّقت فوق سماء المدينة، وسألته عن تأويل رؤياي. فقال:

أما الميناء فقد أَمَر ببنائه الإسكندر، لكنه استعجل الرحيل ولم يستطع الصبر حتى يراه، فهواه الذي كان غلَّابًا عليه أنساه ما علَّمه له أرسطو ولقَّنه في الصغر إياه. وهكذا أعماه عن عمق الفلسفة الهوسُ بالفتوح، حتى انقضى أجله من دون اللحاق بما تمناه. وأما الفنار فكان للمساكين العاملين في البحر، وكان يُنار للمسافر البعيد ليهتدي ويُقبل، لكنه انهار. وصارت أحجارُهُ جدران قلعة تصدُّ وصول القادمين، بالنيران. حوتِ الجند حينًا ثم خوتْ، فخلا إليها الخائفون من المحبين، والحالمون، وزخرفوا حوافها بالأحلام المستحيلات.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وأما المرأةُ العاشقة المعشوقة، المشرقة المحروقة، فهي المقتولة هنا منذ العام ٤١٥ بحسب الأعوام التي تحسبون لميلاد المسيح الذي تعرفون، واسمها من الأزل إلى الأبد «هيباتيا»، ولم تتلقَّ النساءُ من فيوضاتي، ولا تلقَّى الرجالُ، مثلما استقبلت.. وقد تقدَّمتْ، لكنها بعد حين تأفَّفت، حين رأت الكلاب تلحس الإناء السكندري البرَّاق، وتخرِّب جدران بيتٍ كان معمورًا فصار مهجورًا.

* * *

رأيته يذكر ما يثير الأسى، بغير انفعالٍ. فعرفتُ أنه عقلٌ كليٌّ فعَّالٌ، لا يعرف عاطفةً ولا ميلًا عن الصفاء السرمديِّ التام، مثلما هو الحالُ في انفعالات الإنسان. فالمناسبة بينه وبين البشر، هي الفيضُ والفعلُ منه ومنهم التلقِّي والانفعال. وقد انفعلتُ بما قال، وأردتُ التفصيل في خبر المرأة البهية، التي قُتلت في ماضي الإسكندرية وانطوى ذِكْرها. فقال بإجمالٍ إنها هيباتيا، السامية، الفاضلةُ، الفاصلةُ بين عصر النور وزمن الظلام. هي انقشاعُ غيومٍ، ونتاجُ علومٍ عاشت قرونًا حتى استطاعت صياغة جوهرها الفريد. فلما أهدر البؤساء هذي الجوهرة، وأطفئوا بالغلِّ المصباح المنير، بقيت الإنسانية قرونًا تعسُّ في الظلام حتى صار البشر كالخفافيش.

قلتُ: فمتى يكون في الإنسانية مثلها، ثانيةً؟ فقال هذا يحتاج صبرًا طويلًا، فمثلها لا يكون كل حين.. غمرني الأسى وأردتُ منه السلوان فاستزدتُ، فقال: في زمنٍ مضى، لم يكن العلمُ إلا سكندريًّا. وما كان

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بالعالم آنذاك ملوكٌ راشدون، مثل البطالمة الذين كانوا باللسان يونانًا، وبالهوى والإقامة مصريين. وقد أقاموا هنا معبدًا ليكون معهدًا للعلم، وأسموه «بيت ربات الفنون» لأنهم من غير شرحٍ ولا تفهيمٍ، أدركوا أن شمس الإبداع تشرق عليهم من نوافذ هاتيك الربات. وكانت «هيباتيا» يوم أقاموا للمعرفة بنيانًا، نطفةً حَبَلَتْ بها العقولُ لخمسةِ قرون، ثم ولدتها مشرقةً بهيةَ القسمات منذ زمن المهد وحتى لحظة اللحد. فهي فكرةٌ بسقت وبذرةٌ سُقيت بماء الروح والعقل والأدب الرفيع، على يدِ أعلامٍ من العلماء عاشوا جيلًا بعد جيل، وتوارثوا المعارف حتى أورثوها «هيباتيا».. وكانوا من قبل مولدها بقرون قد ألحقوا بالمعبد المعهد، المكتبة التي آلت يوم حرقوا هيباتيا للانهيار. فصارت، بعدما كانت موئلًا لأبناء النور والفهم وحفظ السابق من العهود، هرَّاجةً بالفوضى مثل جبلايةٍ للقرود. اندرس فيها الدرسُ القديمُ واندثر الألقُ التليدُ، فأمست النفوسُ معتمةً والمواليدُ ما بين مدفونةٍ ومَوْءُود، وغدا قلبُ الأمومة من يومها خاويًا، أو هو من بعد الفرح مفئود.

قلت: ألا يمكنك الكلام، إلا مجازًا ورمزًا؟ فقال: كلماتُ الحكمة مرموزةٌ لا محالة، فلا تردَّ الرمزَ عنك ولا المجاز، ولا تردَّ عليهما، فإن بهما يفوز عابرُ الهوَّة، ويجتازُ من فاز. وخُذْ منهما ما تعكس مرآتك، واحفظ بقلبك كلَّ ما فاتك. حتى يأتيك اليقين، ويقوم عليه عندك الدليلُ والبرهان. وما التعقُّل، إلا إقامة الدليل وسطوع البرهان. وقد كانت البرهنةُ طيلة خمسة قرونٍ، سكندريةً، فكنتُ أيامها أكادُ أقيم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

دومًا بهذا المكان وأنسى بقية بني الإنسان، لأنهم نسوني في ذاك الزمان فنسوا أنفسهم. وأنا لا أذكر إلا من تذكَّر، وليس عندي من العواطف ما يعصف بعقول البشر الفانين، فيردُّهم إلى هُوَّةِ القردة الخاسئين.

قلت: وكيف يكون الفهم من غير عاطفة؟ فقال: الإدراكُ الفوقي مجردٌ ولا مشاعر فيه، والعقلُ الخالصُ صافٍ عن كدرِ البشرية وعن اختلاط الوصف بالموصوف. فإن تدبَّرت الأمر، رأيت العقولَ بريئة عن ملامسة المحسوس، وأدركتَ مأساة الإنسان الجامع بين ما يختلف ويتناقض، فعرفت بذلك سرَّ الحيرة الناتجة عن تفرُّق القلب والنظر العقلي. وقد كانت هيباتيا حائرةً بين عقلها وقلبها، ثم هدأ ثورانُ القلب فيها، فصار عقلها قلبًا جميلًا اختار لها الموت بديلًا للجهالة والهوان.

* * *

جرت بين عقلي الأرضي المنفعل والعقل السماوي الفعَّال، من دون ألفاظٍ، أسئلةٌ حيرى جاءت عليها إجاباتٌ بالإيجاب شافياتٌ، فمن هذه الأسئلة وتلك الإجابات: هل عاشت هيباتيا حياتها كلها في الإسكندرية؟ نعم، ولم تفترق عنها لأنها لم تعرف موضعًا في العالم، أجمل منها.. هل رأيتها كثيرًا؟ نعم، كنتُ دائم التجلِّي على أبيها، وكانت دومًا معه منذ طفولتها المفعمة بالاندهاش.. هل كان اسم أبيها ثيون؟ نعم، كان لها أبًا وأمًّا، فتعلَّقت به وأحبَّت لأجله الفلك والرياضيات من هندسة وجبرٍ وحساب.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قلتُ: لكن الجبر عربيُّ النشأة، ولم يظهر إلا بعد حينٍ على يد جابر بن حيان، ولذلك نُسب إليه لفظ الجبر. أم تراني مخطئًا؟ فقال بعد صمتٍ قليل: ما كان الجليل «جابر» رياضيًّا أصلًا، ولا اشتغل بهندسةٍ أو حساب. وإنما كان ماهرًا في الكيمياء، ومتوغلًا في الأسرار.. سألتُ: فأين إذن ظهر الجبرُ؟ فأجاب: الجبرُ سكندريُّ الأصل، ومنارته القديمة في هذه المدينة كان رجلًا اسمه «ديوفنطس» ومنه عرف الناسُ هذا العلم، واشتغلوا به من بعده.

قلتُ: ما علينا الآن من ذلك، حدِّثني فقط عن «هيباتيا» وإن تفضّلت بالإشراق، أَفِضْ ولا تكتم سرًّا. واحكِ قول الحق، الذي فيه يمترون حين يزعمون أنها كانت ساحرةً، ومشعوذةً بالدجل. فعاقبوها بأن سَحَلوها، ثم قشَّروا بالأصداف جلدها عن لحمها، ثم أضرموا فيها النيران وهي حية، فأحرقت ذكراها كل قلبٍ سليم وعقلٍ مستقيم.. فقال، إجابةً على هذا الكلام الأليم: هي امرأةٌ، والنساء جميعهن ساحراتٌ على اختلافٍ بينهنَّ في مقدار سحر الأنوثة الفتَّان الفتَّاك، وقد كانت معشوقتك «هيباتيا» تبلغ من السحر الأنثوي غاية الغايات، ولكن سحر العقل الوقور كان يحوطها أيضًا ويذهب معها حيثما ذهبت، فتسبي الألباب بالسحرين: السرمدي، والبرَّاق. أما الدجلُ والشعوذة، فهذه تهمةٌ جاهزةٌ عند الدَّجَّالين المشعوذين، يلصقونها بمن يشعرون أمامه بالضآلة وهوان الذات. فيظنون أنهم بالتهوين من العالي يرتفعون، وبإهانة السامي من حقارتهم يتطهَّرون.. فإذا ازداد سمو المفترق عنهم بالحال والمآل وعلو الهمة وارتفاع الهامة، طرحوه أرضًا بالأفعال بعد الأقوال، وقتلوه كي يسلبوه المكان والمكانة. وبئس ما يفعلون.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وقد حزنتِ الإسكندريةُ وأظلمتِ الدنيا بعد مقتل هيباتيا في السنة المذكورة، وخلت الأعوامُ من الأعلام في العلم لعدة دهور، حتى جاء «جابر» المذكور بعد أربعة قرون. ولم تظهر في سماء المعرفة نجومٌ من النساء لمدة خمسمائة عام، وتحقق الوعيد الذي كان «كليمان» القسيس قد أطلقه من قبل ميلاد هيباتيا بقرنين من الزمان، حين قال: إنما جئتُ لأدمِّر أعمال الأنثى.

* * *

البشرُ تُعَساء، يهدمون ما لا يفهمون. يدمِّرون الأنوثة لإعلاء الذكورة، ولا يدركون أنهم بذلك يخسرون السابق واللاحق، ويُلحقون بالمسحوق الماحق، ويحرمون الجوهر الإنساني من اكتماله البرَّاق، فيُعتم، ويعيش في الحلكة الرجالُ مع النساء. ألا ساء ما يحكمون. وربما كان الأمر يهون، لو كان في الناس من أمثال هيباتيا كثير. لكن الرمل في الأرض هو الوفير، أما فصوص الجواهر فهي القليل النادر. غير أن خراف الرب ومعزاته وأغلب الدواب، يرون المرعى أهمَّ من المعنى، ويتوهمون أن العشبَ أشحُّ من الألماس.

ما الذي كان يشغل عقل هيباتيا؟ صورةُ الأرض وموضعها بين أجرام السماء، فمن قبلها بقرون أبدع السكندري البارع «كلوديوس بطليموس» كتابين، أحدهما في جغرافية الأرض والآخر في شكل السماء. لكنه كان يظن أن الأرض هي مركز الكون، فغلب ظنه على العلماء والجهلاء. فانهمك هؤلاء في شرح الكتابين وإيجاد الحل الرياضي لحركة الأفلاك حول الأرض، وأولئك ظنوا أنه ما دامت الأرض مركز الكون، فإن الإنسان هو مركزُ الأرض والكون وابنُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الإله. أفرأيت بؤس مَن اتخذ إلهه هواه، وقصره على الرجل من دون أمه وأنثاه؟ فلا هو عرف سرَّ الإنسان، ولا أدرك للكون معنى، ولا وصل يومًا إلى معرفة حقيقة الإله.

.. كانت هيباتيا وهي طفلة، تتأمل أباها «ثيون السكندري» وهو يشرح لطلاب العلم ما كتبه «بطليموس السكندري» عن الفلك، فتتمنى أن تكون يومًا مثل أبيها، ثم كانت. لكنها اكتشفت رويدًا أن حسابات حركة الفلك لن تنضبط أبدًا على هذا النحو، ورأت في كتابات «أريستارخوس السكندري» صورة أخرى للأجرام السماوية، تتحرك فيها الأرض مع بقية الأجرام السماوية. لكن هذه الكتابات لم تكن مكتملة، فتمنَّت أن تكملها يومًا هي، فانهمكتْ في الأمر حتى كادت أن تتمه، ولكن قَتَلها المهووسون. فتأخَّر على البشرية هذا الاكتشافُ زمنًا طويلًا، حتى نهضت أوربا وقال «كوبرنيكوس» مقالته عن مركزية الشمس في المجموعة الفلكية التي تدور حولها الكواكب وهذه الأرض، فلا ثمة مركزية للإنسان. ولا معنى لما اعتقده أهل الظنون، من أن الرجل هو صورة الله. فما الكلُّ إلا دورانٌ في دوران، وما الدائرة إلا أتم الأشكال، ومن هنا جاء الإشكال. ولذلك كتب «نيتشه» قريب العهد بزمانكم، ما نصُّه:

«في زاويةٍ بعيدةٍ من الكون، حيث تترامى آلاف النجوم والمجرَّات، جاءت على أحد الكواكب حيواناتٌ ذكية اسمها البشر، اخترعت المعرفة. وكانت لحظة الاختراع هذه، هي أكبر ما شهده التاريخ الكوني من زيفٍ، وتبجُّحٍ. غير أنها ليست سوى لحظة، إذ يكفي أن تتنهَّد الطبيعة، حتى يفنى الكوكب وتموت تلك الحيوانات الذكية».

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ هَرَجُ الدُّهُور، بعد تَقْدِيسِ «سيرابيس» وتَدْنيس «حتحور» ◊

رأيتُ بالأمس فيما يرى النائمُ والصاحي، أن الربة القديمة «حتحور» تركت صورتها كبقرةٍ ولودٍ وَدُودٍ، تهب للناس الحليب وتحرث الأرض وتخصبها. واتخذت صورة اللبؤة الشرسة «سخمت» ذات الأنياب الفاتكة والمخالب الناهشة والغضب المستطير. أحاط بي الوجلُ، فتركت سريري الوسنان الآمن، وقد تحقَّقتُ بالمعنى الذي أشار إليه الشاعرُ يوم قال: أبوك احتمى بالنصوص، فدخل اللصوص.

بخطواتٍ حيرى سرتُ بحذاء البحر حتى جلستُ عند حافة اللسان الصخري، مستبشرًا بالنسيم السكندري ذي العبق السحيق، وآملًا في تجلِّي العقل الفعّال في الإنسانية. لعل فيوضاته ترتسمُ على مرآة ذاتي، فأُدركُ السرَّ الكامنَ خلف الظاهر من الأمور، وأعرفُ علَّةَ ما جرى من تهريج الأهل طيلة هذه الدهور، فوجب على الربة التأديب.. طال سكوني وتوغَّل المساءُ بي، بينما الوقتُ ينتصبُ بداخلي كالسكين، مع دوام احتجاب الفيوضات وانعدام أثر التجليات..

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بعدما انتصفَ الليلُ واشتدَّ البردُ وخلا الخواءُ المحيط بانفرادي، عمرتني الحسرةُ وأخذني مني الضجرُ، فتركت موضعي الأثير لأجوس خلال الديار الخالية من الأفراح والآمال، عسى سَرَياني يواسيني. فلا يستولي عليَّ الأسى، ويسلبني السَّلْبُ المتسلِّل إلى سائر النفوس مع الأنفاس.

سرتُ في الطرق المهجورة مستسلمًا حتى أنهكني التطواف الليلي وهَدَّ أركاني، فارتميتُ تحت شجرة «الجميز» الرامزة عند القدماء، إلى عطاء الربة حتحور. فرأيتُ الأثر قد اندثر، وتناثرتْ من الشجرة الشجونُ. تعلَّقت بأذيال الآمال، وقلتُ في نفسي: لعل الظلَّ يمتد بعد حينٍ من حولي، ثم تأتي الشمسُ فتكون عليه دليلًا. لكن عتمة العشي استطالت، ثم جاءني صوتٌ من بعيدٍ فأصختُ السمع حتى وصلني هسيسُ هَرَج، جاء من جهة الميادين التي صدحتْ يومًا بترانيم الحرية، فنظرتُ ناحيتها وحدَّقتُ في نشرات الأخبار. ليتني ما فعلت. رأيتُ خلف ازدحام الشاشات احتجاب الحقائق، ولمحتُ في الزوايا المعتمة موتى يتساقطون من دون صخبٍ ومن دون حساب، فمرَّ بخاطري احتمالٌ مريع: القاضي هو القاتلُ، وكُلُّ بريءٍ سوف يُدان في الميدان.. ثم أدركتُ أن هذا الاحتمال محالٌ، لأن الله شديدُ المِحال، وأن الخراب سيلحق بالمَحَال. فالليلةُ، عيدُ الفِصْح والفصح والعبور الألوهيمي بديار مصر، وهي موعد الوعيد المعبر عنه بالقول الرباني المزعوم: سأفعل فيهم أفعالًا.

عندئذٍ أسرجتُ قنديلي، وتقدَّمت نحو القوم الذين ظننتهم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يتظاهرون لأنهم يؤمنون بالغيب، فيقيمون الأفراح ابتهاجًا بما جاءهم من المنح الربانية. لكنني أدركتُهم حين أدركتُ أنهم يحتفلون بالرحيل نحو التيه، ويحتفون بالتهاويل التلمودية والتوراتية وبكل قولٍ سفيه. فلم أُطق زَيْف مَنْطقهم وهرج مناطقهم، فأطفأتُ سراجي بنفخةٍ صادقةٍ، وكذَّبتُ بهتان ناطقهم.. صخبوا عليَّ، فهجرتُ موضعهم وأتيتُ الساحةَ الرحبةَ الخالية، ومنفردًا وقفتُ منتظرًا ما قد يأتي من التجلّي الواهب للفهم، وقد لا يأتي. وبقيتُ هناك ساكنًا عسى التهيل يمهِّد لاستقبال الفيض المفتقر إليه. لكن ظهور اللوامع ظلَّ عسيرًا.

استجلبتُ بالابتهال فيوضات العقل الفعَّال، ورجوتُ مجيء الإشراق بترنيمةٍ لشيخ الإشراق تقول: يا قيوم، أيِّدنا بالنور وثبتنا على النور واحشرنا إلى النور، واجعلْ منتهى مطالبنا رضاك، وأقصى مقاصدنا ما يعدُّنا لأن نلقاك. ظلمنا نفوسنا، ولستَ على الفيض بضنين. أسارى الظلمات بالباب قيامٌ، ينتظرون الرحمة ويرجون الخير. الخيرُ دأبك اللهم، والشرُّ قضاؤك. أنتَ بالمجد الأسنى مقتضى المكارم، وأبناء النواسيت ليسوا بمراتب الانتقام.

* * *

وأخيرًا تمَّ المأمولُ، ونقلني الوقتُ إلى مكانٍ كان فيما سبق مقدَّسًا، وسيكون يومًا مُبجّلًا. هو معبد الربة حتحور، القائم في البلدة المسماة اليوم «دندرة».. رأيتُ خارج الأسوار شابًّا يتكلَّم بلسانٍ يضطرب، وشفتينِ ترتعشانِ، فلما اقتربتُ منه أخبرني

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بأهوالٍ. منها أنه هرب للتوِّ، من العاصمة التي يختبئ فيها الحراسُ الذين ساء بهم المآل، فتدهورت بالناس الأحوال. قال وهو يلهثُ بأنفاس مُستغيث، إنه جاء ليُخبر الكاهنة بأن الأهل ترتجف فيهم الفرائصُ، لأن الفرائس التي كانت بالأمس عرائس، ابتلعها غولُ السلطان وسكَّانُ البرلمان، لا لذنبٍ وقع منهنَّ، وإنما كي تُسكت الرهبةُ الأصواتَ ويهرب المنادي بمقاضاة القضاة، والحكمِ على الحكام، وغير ذلك من البدع مثل بغضِ البغاة والطغاة والرواة الذين يكذبون.. سَكَتَ الشابُّ الذي شاب، حينًا، حتى عاد إليه صوته فقال إن المتهوِّسين الذين يكرهون الأطفال ويكنزون الأموال ويحبون الارتفاع بشواهق الجدران، يؤكِّدون أنهم وحدهم الأصلاء. لأنهم أبناءُ كبير الجند، الذي علَّمهم السحر والفجور وإطفاء النور. وهم ينتحبون كيلا يتنحى عن سرير الحكم أبدًا، وسوف يفعلون المخازي ويجرِّفون الجنَّات ويتعالون بالأبراج البالية الطامحة إلى مناطحة السحاب والرباب، معاندين الآية الباهرة ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.. قال ذلك ثم أضاف بعدما نكس رأسه، ومَدَّ إصبعيه لينزع عن عينيه ما ظننته قذى ثم ظهر أنه شَظى، إن الصغار صاروا يتبجَّحون بأنحاء البلاد، وهم اليوم يتلهَّون بفقء فُقَّاعات القانون، مثلما كان الكبارُ سابقًا يفعلون.

لما قال ما قال، فاهترأ القلبُ من كلامه وسال. ضحكتْ طفلةٌ أطلَّتْ علينا فجأةً من شرفةٍ فسيحةٍ تحت الأرض، وراحت تغنِّي

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مستهترةً بكلماتٍ مأثورةٍ عن واحدٍ من الحكماء السبعة القدماء. الذين ببلاد اليونان عاشوا، وما عاثوا.. كانت الكلمات تقول: «القانون مثل خيوط العنكبوت، يعوق الهوام والحشرات الصغار، لكنه يسمح للكبار منها بالمرور، مع أنها عمياءُ لا ترى النور».

فور انتهائها من الغناء الشجي، سمعتُ صلصلة الجرس الذي يدكُّ الأركان، واختفت المشاهد كلها، وسطع بعقلي العقلُ الفعال بغتةً، وهو يصرِّحُ بنبرة الواثقين: قد وقع الأمرُ الذي كنت عنه تحيد، فدعْ تلك الرموز جميعها، واضربْ بعضها ببعضٍ بقوةٍ، كي ينقدح السراجُ الهادي إلى سرداب الكنوز. وامضِ إلى حيث تؤمر، ولا تجلس فوق صخرٍ قد تجمَّر، واقطع رجاءك في لقاءِ الكاهنة. فما ثم الآن كهانة، ولا عاد المعبدُ معمورًا. سألته: فما بالُ القرون الأولى وما انقضى من عَبَق العصور؟ فقال: ذهب به هَرَجُ الجهَّال عبر الدهور، فقد أفسدوا في الأرض وهم يظنون أنهم لداعي الحق يصدعون.. رجوته أن يستفيض، فأضاف ما سأتلو عليكم منه ذكرًا وأذكر منه طرفًا، والعُهدة في ذلك على الفياض الذي أفاد بالآتي:

رأى المصريون المبكرون الذين كانوا قبل الزمن المسمى عصر الأسرات، أن للتحنان ربة اسمها «بات». ثم حوَّروا المعنى ليكون بالعربية التي سوف تولد بعد ألوف السنين «بيت» فصارت الرَّبَّة تسمى: بيت حور، وتُنطق بلفظهم: حتحور.. وحكوا عنها قصصًا صاغها وعيهم المبكر، البرَّاق، المبهور بأصل الوجود وابتداء الكون وحقائق الأشياء. فكان مما سطروه، وصار من بعدهم مسطورًا، ثم صار أُسطوريًّا؛ سيرة الربة حتحور.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وردت سيرةُ «حتحور» أول مرةٍ في لوح «نارمر» فدلَّ ذلك على عراقة حضورها في وعي المصريين القدماء الذين مهَّدوا للناس سبل الرُّقي، وأدركوا أن الطبيعة الواهبة لن تكون إلا مؤنثة، ولا يمكن أن تعبِّر بالرمز عنها إلا المرأة الأم، فرسموا «بات» التي بات اسمها «حتحور» ونُطق لاحقًا «هاتور» على هيئاتٍ شتى، نُقشت على حجرٍ أو رُسمت على الجدران. فآونةً هي امرأةٌ بهيةٌ رشيقة القوَام على رأسها تاجٌ يضم كُرَةَ الأرض، بين قرنيْ بقرةٍ ولودٍ حلوبٍ. وآونةً هي وجهُ أمٍّ حنون، بجانبيه أُذنا بقرة. وآونةً هي بقرة كاملة تثير الحرث وتسقي الزرع ويمتلئ منها بالحليب الضرع، وعلى رأسها التاج القديم. وآونةً هي لبؤةٌ، جالسة كالنساء الحارسات لأطفالهن.

وحكى المصريون ما يحاكون به قصة ابتداء الخلْق، ترميزًا، فقالوا إن للأكوان إلهٌ أول اسمه المحتجب، هو بحسب اللسان القديم اسمه «آمون» الذي تحوَّر في صيغ كثيرة بحسب اختلاف اللغات: آمن وأَمِن وإمون وآمين، وهي أسماءٌ عديدةٌ تعني جميعها المعنى الأول للاسم «المحتجب». وفسَّروا سرَّ احتجابه بأنه بعدما أمر «خنوم» المسمى لاحقًا «خرَّاط البنات» بتخليق البشر من الطين والحمأ المسنون، وتكاثروا. وبعدما عاش بينهم فَرِحًا بهم، لأنهم كمثل أبنائه وأحفاده المحبوبين وأسباطه. وبعدما أهداهم إلهة السماء الحانية «حتحور» التي هي بيت الإله «حور» المسمى التباسًا حورس، فكانت حتحور هي موئل حور وحضنه وملاذه الآمن، ومرضعته، وربة الرقص والموسيقى والبهجة العلوية العميقة. وبعدما أتمَّ الحال، استراح.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لكن البشر فسدوا وفشى فيهم التبجُّح، فأمر آمونُ حتحور بتأديبهم فتركتْ هيئةَ البقرة واتَّخذت صورةَ اللبؤة، وأشبعت الفاسدين تقتيلاً حتى فزع منها القاصي والداني، وأشفق آمون على البشر من الفناء التام، فأسكرها بخمرٍ لها لون الدم، ولما أفاقت استفاقت، ورأت قسوتها على الأبناء فعادت إلى صورة البقرة، وصعد آمون آسفًا إلى ما فوق السماء. وصار يظهر للناس من كُوَّةٍ وحيدة هي قرص الشمس المسمى «رع»، وأصبحت حتحور ربةً للسماء تُعرف عند المصريين بعين رع، وعند اليونان بأفروديت، وهي عند اللاتين فينوس.. وما تلك جميعها، إلا رموزٌ للمعاني.

وقد قدَّس القدماءُ من أهل مصر هذا المعنى، وأقاموا للربة حتحور المعابد في أنحاء دندرة والأشمونين وأطفيح التي طفحت مؤخرًا بكل ما يمتلئ به اليوم الإناء. فلما ساء الجوهر، وتجمهر الجهالُ تحت لواء العسكر من الرومان، فأزاحوا الأنوثة المرموز إليها بالبقرة وجعلوا محلها العجل «أبيس» المصوَّر على هيئة الثور ليرمز للإله الذكر: سيرابيس؛ رب الجنود. تراجعت عبادة رَبّة الناس إلى أرض الصعيد لأنها موطن الابتداء، فصار المقدس هناك هو حتحور وابنها الماسك بالشخاليل الصاخبة، وهو المسمى قديمًا «إحِّي» والمنطوق اليوم بلسان الأسافل في المدن «أحَّه»، وهي اللفظة التي يطيق سماعها الناسُ اليوم في الصعيد، ولا يقبلون المتلفِّظ بها لأنها استدعاءٌ لإله المرح، وهم منذ قرونٍ محزونون.

أما في الإسكندرية، فكان الإله المقدَّس فيها هو الذكر الثور

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المتمثل بالرَّجل الملتحي «سيرابيس». وباسمه أقاموا معبدًا أسموه «السيرابيون» وكادوا يفلحون، لولا أنهم نسوا تربية الصغار. فعمَّ الشقاء وتكاثر عُبَّاد «عنخ» الممسوخ وعلا رمزُهُ المتحوِّرُ على هيئة صليبٍ صار مطرقةً هدمت معبد الإله المذكَّر سنة ٣٩١ للميلاد الذي يتوهَّمون، وكانت سنةُ الهدم هي سنةَ الاستعلان وإعلان المسيحية ديانةً رسمية. وقد دُنِّست المعابد الحتحورية آنذاك، مع أنها ديانةٌ أموميةٌ تدعو إلى التقديس لا التدنيس. وتشوَّه بإزميل الجهل وجه الربة الرمز، فاندرست الدلالة وعاث الناس في العتمة.

كرهوا النور الأول فتركهم، فتاهوا، فأضلَّهم جهلهم وجعلهم في الظلمات يعمهون. وأخذوا من يومها يتقاتلون باسم الحق المزعوم، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن وحدنا المصلحون المتَّقون، والقتلُ هو جزاء الذين ليسوا بما نعتقده يعتقدون.. ومن هنا احتجب الإله عن القلوب وغاب سناه، لأن الغباء بلغ مداه. وحدا بالجهال إلى تقديس سيرابيس ثم تدميره، وتدنيس حتحور ثم نسيانها ونسيان المعاني، التي كانت تشير إليها الرموز والصور والتماثيل.

* * *

ولولا ضيقُ الوقت والصدور، والميلُ العام إلى الفتك بكل ناطقٍ بحكمة الدهور، ناهيك عن غلبة الهَرَج وتراثه الممتد فينا عبر عصور، لكنتُ قد استكملت تدوين ما فاض من «العقل الفعّال» الذي فسَّرَ وأفاض.. ففي هذا القدر كفاية لمن فهم، وتعمية لمن كان في هذه أعمى وفي الآخرة أشد عمًى وأضلّ سبيلًا.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ استعادةُ الفَجْرِ الفائِت بذِكْرِ جلال الرَّبَّةِ ماعت ◊

لما بدا الأحياءُ في عينيَّ كالموتى، تركتهم جميعًا غيرِ آسفٍ على الفراق وجلستُ ساكنًا عند طرف اللسان البحري الممتدّ في الليل والماء.. بعد حينٍ من التحديق، لمحتُ في الأفق البعيد بشاراتٍ لا تظهر واضحةً في هجير النهار، ثم رأيتها ناصعةً عند انعكاس ضوء القمر، على صفحة اسوداد البحر المتموِّجة بلمسات نسمات المساء، فاستبشرتُ بإشراقِ قلبيٍّ قريبٍ. يتجلَّى فيه العقلُ الفعَّال. ما خابَ ظني ولا ساء سعيي، فقد بدا نوره عندما انتصف الليل فبدَّد كل الويل الذي عانيته حين امتدت ظلال المساء في الليلة السابقة، التي استطالت لسنةٍ تامة من السنوات الكبيسة، أو هكذا بدت لي.

وقد أسعدني سطوعُ العقل الفعَّال بداخلي وإشراقُ شموسه في باطني، فأخذتني عند صلصلة الجرس نشوةُ المأخوذ من الهوس، ثم غمرتني السكينةُ حين توالتِ الفيوضاتُ وتتالتِ المفهوماتُ.. وقد تذكَّرتُ قومي، فاشتكيتُ هوانَ الأهلِ واضطراب الديار. وابتهلتُ إلى السماء كي تنثر نجومًا لامعات في العتمة، لتهدي التائهين إلى سواء

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

السبيل، بعدما استدام بهم السوءُ وانكشفت منهم السوءات، وراح هَدَرًا كُلُّ مَنْ بقى حيًّا وكل مَنْ مات.

فلما حكيتُ الأمر إجمالًا بلسان الحال، أخبرني النورُ البهيُّ بأنه لا غنى عن ترجمة تفاصيل ذلك بالمقال، مع وعدٍ منه بالإفاضة والإفادة إذا استطعتُ تلخيص ما جرى أمامي في ساعات الليلة السابقة التي استطالتْ. فشرعتُ في الكلام من فوري، آملًا أن يصل صوتي والصدى إلى آخر المدى، وقلتُ متخيِّرًا من ألفاظ أفصحها:

قبل ليلة الخامس والعشرين من شهر الخلاص وقهر القهر، استدام الهجيرُ بديارنا، فكانتِ الأعوامُ العجافُ دلوالًا متلاحمة. حتى عَسرَ حسابها بالسنين. فقال بعضُ الناس إنها ثلاثون، وأكَّد آخرون أنها بالتمام ستون. لكن الجميع اتفق على قبح ما جرى خلالها، إذ تصدَّعت الجدرانُ وتشقَّق البناءُ المدهون بطلاءٍ رديءٍ له لونُ الغبار. وبعدما استطال صبرهم غضبوا، ثم وصل بهم السيلُ الغاضبُ إلى الزُّبى.

ثار الناسُ حين سمعوا الصوتَ الصارخ في البرية، يقول إن الأرض قد يرثها الصالحون والحالمون، وإن الخزانى بعد حينٍ سوف يُعزَّون، وإن القوم موعدهم الصبحُ القريب. ولهذا خرج الأهلُ من بيوتهم الغابرة يستطلعون الغيب، فاعترضهم قارئُ الكفِّ الملتحي وزعم أن عنده الخبر اليقين، لكنه كان يكذب. رَمَته الصبايا ومعهن الصِّبية بالحصى، فتوارى سريعًا ليواري ما انكشف من سوءاته

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ويعالج خزيه وخيباته. وانفسح الطريق. تقدَّم الناسُ صاخبين، مؤكدين للملأ أنه من حَقِّ العصافير التغريد وإزعاج النائمين في العسل على السرير الملكي المغصوب، وأن إسقاط الآيل إلى الانهيار حقٌّ مشروع، وأن الإناء الذي يغلي بنيران الغضب رَشَح، وأن السبيل قد اتضح.. فأرسل الفاسدُ للثائرين غلمانه ودفع نحوهم كل فتوانه، فما ارتاع الثائرون بل تجرَّءوا على الطلب، وراحوا إلى حيث البنادق المصوَّبة نحوهم، بنحورهم، وقذفوا في وجه الطلقات دماءهم. فلم تجد الأقدارُ بُدًّا من الانصياع على مضضٍ لمطلبهم، وبذلك جرى الأمرُ المقدورُ. فلما انقضى النهارُ واحتجب النورُ، توالت ساعاتُ الأمسية قاسياتٍ، وتتالت وقائع ذلك اليوم المشهود.

في الساعة الأولى بعد الغروب، تدافعت الحشودُ فَرحةً بالتنحّي المعلن، ورافعةً من اللافتات الكبار ما يلفت الأنظار إلى أن الزمان قد استدار، فاختفت الفراعين مع المزيَّفين، وانكشف الكذبُ فانكسف كهنةُ الكهف المشبوه، وانخسف المرموز إليهم بالنسور. ومن فوره، انهار بيت السَّفَّاح الذي كان يستولد الزواني بالحمل السفاح. ولكن، نسي الناسُ لوهلةٍ أن النقاهةَ لازمةٌ بعد طول المرض، فاستعجلوا الفرح بالشفاء وطلبوا المرح، فخرج عليهم المهرِّجُ القديم وقد ارتدى الزِّيَّ الجديد. فلما صفَّق له الحاضرون، رفع فوق رءوس الناس أعلامًا من الإعلام تُشير إلى عبارات العالمين، المؤكِّدة أن الثائرين هم الصفوة وليس لفارسٍ منهم أيُّ كبوة.

سأله المشاهدون المشدوهون عما يجب عليهم الآن عمله لرفعة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

البلاد، ورفع المعاناة عن العباد. فقال المهرِّجُ: لا شيء يُفعل بعد الآن إلا الابتهاج بالأفراح، والانهماك في الضحك الكثير الذي به يحيا القلب وتفرح الأرواح. ولمَّا وجدهم ينصتون، قال زورًا وبُهتانًا: ليس عليكم الالتفات إلى ما مضى أو ما سوف يأتي. فقد انقضت الأحزانُ، والحياةُ الآن تحتاج الراحة مع المرح والمجون. فصدَّق مزاعمه الأكثرون.

في الساعة الثانية من الأمسية. جاء الشاعرُ الذي كان لسانه في النهار مسحوبًا، ثم أمسى مسجونًا. فوجد الناس حول المهرِّج يتحلَّقون وعيونهم تدمع مع اشتداد الضحك، فسكت حينًا حتى مَلَّ القومُ من تهريج المضحكين الذين أفلسوا سريعًا، فمالَ الجميعُ إلى استماع القول المكين.. دبج الشاعرُ قصيدةً جديدةً، يقول في مطلعها وختامها: قد تكسَّرت هياكل المجوس، وانطفأتْ كل النيران التي كانت بالنفوس تجوس، فعليكم الآن بترديد النغمات لأن الأغنيات تُؤرِّق الطغاة.

أعجبتِ القصيدةُ بعض الصغار فخرجوا يردِّدون من أبياتها في الميادين، فانزعج النائمُ على السرير، فاسترضاه الرفقاءُ القدماءُ بقطع بعض الألسنة. فما رضي. واستسمحه السَّدنةُ الغابرون في التجاوز عن صخب الصغار، فما ارتضى.. فما وجد أولئك وهؤلاء سبيلًا لتهدئة الحال، إلا التضحية بكثيرٍ من الرقاب، فأرسلوا ابن آوي منزوعَ المخالب ثابت الأنياب، فأنشبها في القلوب وسال من العيون دمٌ كثير.. قُرب ميدان التحرير.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في الساعة الثالثة من الأمسية. ظهر فجأةً داعٍ دَعِيٌّ حوله مُلتحون، وصرخ في الأجواء بأن المهرج والشاعر سواء، وليس للعباد إلا انتظار البعث المعاد، فردَّد لسانُ المؤمنين: «آمين».. كانت الساحة خالية والناسُ ساكنين في مخادعهم يحوطهم هَمٌّ مقيم، فتقدم الداعي واعتلى منصَّة العِظَات وحَمَدَ الربَّ ثم أثنى عليه، ومن بعد ذلك قال: يا أولي الألباب، كيف غاب عنكم أن المهرِّج واحدٌ من أذيال السلطان، كان يُضحكه عليه فصار يُضحكه عليكم. ويضحك معه. وأما الشعراء فمعروفٌ عنهم بلايا، فهم بالأغنيات يَغْوون البلهاء التوَّاقين إلى الغد المشرق، ثم في ساعة النزال يهربون فتراهم بأنحاء الدلتا وأقاصي الصعيد يهيمون، ويهيِّمون القلوب بحكايات العشق المحرَّم المؤدِّي إلى جهنم. والحقُّ صَدَعَ والذكرُ صدح بأنهم دومًا غاوون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون.. ردَّد لسانُ المؤمنين: «آمين».

لما شاعتْ مواعظُ الداعي، تشجَّع الناسُ وخرجوا من خيمة المهرج، وانقطعوا عن الساحات لأنهم ارتابوا في قصيدة الشاعر وفي أنفسهم. واكتفوا من الموسيقى بخبط الدفوف، ومن المعارف بما هو مصفوف منذ قرونٍ فوق الرفوف. وهكذا ابتهج الداعي الذي تنمَّس، وبعد فراره من الحبس تحمَّس، فمال بعينيه ثم أهاب بالجميع أن يهبّوا للدفاع عن القدير العالي، مع أنه هو المدافع عن الذين آمنوا وأمَّنوا للسلطان السلامة والراحة فوق السرير، لأنه الظِّلُّ الذي يدلُّ.. وأضاف الداعي لمستمعيه الذين راحوا يتكاثرون في المجالس مثل الأميبا، بالانقسام، أن «المرزبان» أبان بالتأييد القدوسي عن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ألوان النعيم في الجنات، بعد تمام الوفيات. واستدل على يقين ما يقول بشهادة الأموات. والمرزبان يخبركم يا أهل الحق، بأنه عن قريبٍ آتٍ ومعه البيِّنات. وليس يريد منكم إلا الدنيا، ليعطيكم في الآخرة الجنَّات.. فردَّد لسانُ المؤمنين: «آمين».

بعد حينٍ لم يمتد، أطلَّ المرزبان من كُوَّة فأطال الرجالُ السجود واللَّحى، وحجبوا الغيد الأماليد ليرضى عنهم مرسالُ السماء. وساعتها اختفى الداعي بعدما أخذ معه بعض النسوة الملفوفات بالاسوداد، سبايا بعقود القران، فخلت الساحةُ للمرزبان الذي خطب في الأسماع وأنشأ يقول: ما دامت الآخرةُ هي المراد، فعلى الصالحين السعي وإعطاء الأصوات، وعليَّ الوفاءُ بالوعود بعد وقوع الوفاة. واعلموا أن درء مفاسد الفن البديع، أجدى من جلب المنافع بالعصيان المريع. وتيقنوا من أن الحق الوحيد هو الذي أقول، ولا بأس من بعد ذلك إذا فرَّ الفلول قبل سدادهم دية المقتول. وأبشروا بأنه حان وقتُ تزويج العروس، التي أتقنت من بعد الوقوف الاستلقاء والجلوس. وها قد تأدَّبت الناشز، فليستعد الخراف والماعز لزفافٍ قد تأجَّل. وعلى كل راكبٍ للأهوال أن يترجَّل، فقد انزاح عن جميع المجاهدين هَمُّ الكفاح، وراح الذي راح. فليمرحْ أهل اللَّحى من بعد اللوم واللَّحى، وليرتع العابرون بالشوارع وينعمون بالوعد من بعد التشويش والشيّ، وعليهم كيّ تلك التزاويق التي رسمها الثوار، فالحوائط طفحت بالصور الوثنية، وهي تطلبُ الآن المسح، وليس لكم من بعد العُرس إلا الفَسْح، ولكم إطفاءُ لهيب المتحرِّق المحروم،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

المشتاق إلى بَلِّ الريق برحيق الأنثى المستلقية على بطنها، فوق الركام المقبَّب. ولا فرق في الحقيقة بين إناءٍ وإناء، فانكحوا ما طاب لكم من النساء السَّبايا في التكايا. ولكن هناك فرق في اللذة المصفَّاة والأوطار المشتهاة، بين ما تُعطيه الطفلةُ البكر اللاعبة اللعوب، والمرأة الثيِّب العجوز القعود. فاهتبلوا فُرَجَ فُروجِ الفَرُّوج، وختم كلامه بأن الفجر قريبٌ، فردَّد لسانُ المؤمنين: «آمين».

في الساعة الرابعة من الأمسية. وَرَدَتْ رسالةٌ عاجلة من الوادي المقدس طُوى، ممهورة بختم الجانب الأيمن من البقعة المباركة وبأسفلها صورةُ الشجرة. فلما قرأ بعضُ الناس ما فيها أُلجم لسانهم الوجلُ، ونطق فيلسوفٌ متهورٌ أعلن للناس فحوى الرسالة. وصرَّح لهم بأن المرزبان، يؤمِّن السلامة للسلطان الذي هُزم وزُمَّ هزيمُه، طمعًا في قصره المهجور، وأملا في نكاح النواشز والمهجورات من حريمه. والمرزبان يحتال بصنوف الحيل، لحين استلام القياد من القُواد. والقُوّادُ قُوّاد. فانتبهوا أيها الناس قبل فوات الميعاد، فالندم لا ينفع يوم المعاد. وأعلن لهم، أن الفجر الذي بشَّر به المرزبان، كاذب.. فلما سمع الناسُ هذا الكلام، سقطت منهم الآمال والأحلام. والشعب الذي ثار أمام العالمين انكبس، فجلس على دكة المشاهدين وانحبس، وصار من المشلولين.

* * *

راضيًا عني بعد هذا البيان للأحزان والسلوان، سألني العقلُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفعَّال عما أريد، فقلتُ: التبيان.. فقال منك السؤال، وفيك الإجابة. فانزعْ عنك أوهام المهابة، وأسرعْ إلى زيارة المتحف المفتوح على ميدان التحرير، وابدأ مسارك فيه من اليسار ثم انتهِ إلى جهة اليمين، وقبل خروجك من هناك سوف تجد المفتاح. فلا يفوتك من بعد اليوم كنز الكنوز المرصودة، الموصودة أبوابها بالرموز. ولسوف تدخل بذاك المفتاح، إلى بلادِ الأفراح ومراح الأرواح.

طرتُ من فوري إلى القاهرة التي كانت أمس بالأحرار عامرةً، ثم غدت موئلًا لراغبي الهجرة عن الديار. في الطريق وقفت حينًا أتأمل الموات في قسمات العابرين، حتى جاءتني خاطرةٌ من الحسين بن منصور الحلاج، تقول: المريدُ هو العارجُ بكل ما فيه نحو مطلوبه، فلا يلتفت حتى يصل.. لحظتها استفقتُ وتركتُ الموتى يدفنون موتاهم، وخففتُ الخطو فأدركتُ المتحف قبل إغلاقه أبوابه، وإطفائه أنواره حزنًا على ما أُلقي منه في النيل القريب.

عند البوابة سألني عن وجهتي كاهنٌ قد أزرى به الزمان، فقلت لا شأن لك. ولا لك إلى ادِّعاء الكهانة سبيل. فابتسم وخلع عن وجهه قناع الذكورة، فإذا هو امرأةٌ واهبةٌ للخير والنماء. تقدَّمتني وهي تسري كالأحلام بين الأروقة المليئة بالتماثيل، وراحت تقول: أسرعْ بالمرور فقد لا يطول بقاء ما ترى، فالغافلون المتسيِّدون سوف يسمون التذكارات كلها أصنامًا تُضِلُّ، وتُخبِّل وتُخِلُّ. وليس لها عند هؤلاء من بعد سُبات الناس وحلول الظلام، إلا تكسير الأركان، حسبما نصحهم المرزبان الكذاب الأشر، الذي اختفى خلف الزحام.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قلتُ للكاهنة: وهل تُرشدينني في الطرقات؟ فقالت بأسى: وهل لي من مهمةٍ هنا، غير الإرشاد؟ لكن الرشد لا يكون لغير المسترشدين، فعليك أن ترى بعين القلب وبه تسمع الخافت من الكلمات. واعلم أن هذه الآثار باقيةٌ عن القرون الخالية المسماة التباسًا «الدولة القديمة» والعالمون يدعونها «المملكة القديمة» والخائبون لأنهم لا يعرفون، يكتفون بوصفها بالأمم التي خَلَتْ. سألتُ: فما اسمها الصحيح؟ قالت: زمنُ البدايات، الذي به تصحُّ النهايات ويشرق الفجرُ الفائت بسبب احتجاب الربة ماعت.

* * *

في أول المسار استوقفتني أمورٌ، منها أن تماثيل الرجال والنساء صِنوان، وأن الإلهات الواهبات كثيرات. فشككتُ فيما تعلّمته في الصغر، وسألتُ الكاهنة المرشدة عن السِّرِّ في رسم النساء مساوياتٍ للرجال، وهنَّ المخلوقاتُ من ضلع الرجل الأعوج، وهُنَّ الناقصات؟ فصرختْ في البهو بصوتٍ سحيق القدم، قائلةً بقلبٍ يلتاع: كيف تجرؤ على النطق بهذا الكفر! أَوَليس الرجل مخلوقًا من رحم النساء فكيف يصرنَ الموصومات بالنقص، وهل يصحّ أن يُقامُ البنيانُ بالعكس، ويتقدَّمُ القدمُ على الرأس؟.. ما الذكورةُ والأنوثةُ إلا صنوان، وبغياب أحدهما لا يكون الإنسان.

قالت ذلك ثم صمتت، فصارت مثل البرابي القديمة أو هي كأيقونةٍ قاتمة.. ولما لفَّهَا صمتٌ تحسَّرتُ وتحيَّرتُ، فتوسَّلتُ للعقل

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفعَّال كي يدعوها لمسامحتي، لكنه أفاض من فوره: لا فائدة، وهي لن تصحبك بعد الآن فاستكمل مسارك وحدك، ولسوف تراها ثانيةً قبل خروجك من هذي الدهاليز.

.. رأيتُ في أرجاء المتحف وما رأيتُ، ونظرتُ ففهمتُ أشياءَ وغابت عني من خلفها أكثرُ الأشياء. ولما استكملتُ دورتي واقتربت مجدَّدًا من الباب، وجدتُ الكاهنة التي كانت مرشدتي، تقف عند ناووسٍ أسود كبير، كان ينام فيه فرعونٌ صالح ينتظر لحظة الخروج إلى النهار. بأدبٍ واستعطافٍ سألتها عن الفرق بين الناووس والتابوت، فردَّت بلا اهتمامٍ قائلةً بأنهما كلمتانِ تترادفان، وكلتاهما ليست من كلامنا وإنما من كلام السريان. فتشجعتُ وسألتها عن صورة المرأة المنقوشة فوق رأس الفرعون، وعن الكلام المكتوب بحروف الطير، فنظرت نحوي بحنوٍّ وإشفاق يدل على الصفْح، ثم قالت بلسان المنْح: هذه واحدةٌ من صور ماعت، حسبما صاغها الأوائلُ الذين عبَّدوا الطريق، فآونةً يرسمونها امرأةً فتية تمسك بمفتاح الحياة المسمى باللسان القديم «عنخ»، وآونةً تراها امرأةً مجنحة تبسط نظام السماء على الأرض، وآونةً هي امرأةٌ رشيقة على رأسها الريشة التي تزين أعمال المتوفى يوم القيامة والبعث.. والمكتوب على التابوت، إقرارٌ نقشه النائم في الناووس ليشهد على نفسه بأنه «عاش في ماعت».

قلتُ إذن: فهي تعني العدل؟ قالت: بل العدالة. قلت: التي يرفع اسمها اليوم أهل المجلس الأعلى؟ فقالت: بل هي أعلى من وعيهم القاصر الذي استعجل بعدما ادَّعى، ودعا الجهَّال للجمع بين أمرين لا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يجتمعان. لأنهم يعلمون صعوبة التفرقة والإدراك على أهل الالتباس، الذين هم معظم الناس. ومن هذا الباب، ادَّعي غيرهم ودعوا الظلام النور. قلتُ: فما هذان الأمران اللذان لا يجتمعان؟ فقالت: الحرية والعدالة. فالعدالةُ بالمعنى الأصلي لا اسم لها غير «ماعت»، لكن الأفهام مالت، وفات على الفائت الفاقد أن هذا الرمز الأنثوي المقدَّس، يشير إلى الالتزام والنظام الأعلى المنزَّه عن الوضاعة. وماعت هي المعنى الكامن خلف انتظام الموجودات، وحركة الشمس الجوَّالة في السماء، وسرّ انتظام الحياة بالحب الأزلي وبالولادة والرضاعة. وللنظام اتساقٌ ليس للحرية إليه سبيل. فالحرَّةُ الوحيدة هي أجنحة «ماعت» التي تدعو الإنسان لأن يستظلَّ تحتها بكل الأدب، ومن غير كذب.

قلتُ: فأين ذهبتْ عنّا «ماعت» بعدما هجرت الديار؟ فقالت: هي لا تذهب أبدًا، ولا تهجر الهواء المالئ ما بين الأرض والسماء. لكنها قد ترتفع عن سطح الأرض حين تختلط الظلمات بالنور، ويكثر في الناس هرجُ الدهور. فتقنع «ماعت» بالنظر إلى البشر من عليائها، عساهم يومًا أن يلمحوها فيجعلوا لها صورةً تناسب فكرهم وزمانهم، شريطة أن تكون تلك الصورة مؤنثة.. وهي منذ قرونٍ تترقَّب، عسى الناس تستفيق من جفاف الروح والريق، ويعوا الدرس الموهوب من حكمة الدهور، فيعرفوا أن غاية حياة الإنسان أن تصير كالمكتوب هنا.. «عاش في ماعت».

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ اللاهوت والناسوت في سيرة حتشبسوت ◊

طفلٌ بريءُ القَسَمات سألني عن الملكة المتألِّهة «حتشبسوت» فاستغربتُ من سؤاله، وأدهشني انشغاله عن متابعة التهريج الجاري في أنحاء القرية المصرية المظلوم أهلها، لتنصيب مَلِكٍ جديدٍ يريده المجلس الأعلى بلا تاجٍ ولا عرش، ويريده الناسُ متقلِّقَ النوم دومًا على كل فرش[1].. نظرتُ بعين الحيرة في عين الطفل، لعلني أفهم سرَّ سؤاله. فباح بأن لديه اعتقادًا غامضَ الأصل يُنبِّئه بأنه، من حيث النَّسب، واحدٌ من أحفاد هذه الربة الحاكمة. أو هو بالأحرى من الأسباط، لأنها لم تُنجب ذكورًا وليس لها من الذرية إلا بنتٌ واحدة. أضاف أنه يخشى النشأة في الجهل، فيموتُ غيرَ مُدركٍ لكيفية امتزاج اللاهوت بالناسوت، في سيرة الجدة المبجَّلة حتشبسوت.

تعجَّبتُ من فصاحته وهو الصغير، وأردتُ مجاوبته بقولٍ يناسب عُمق السؤال فتوجَّهت للعقل الفعَّال، آملًا في استنزال الفيوضات واستجلاب بعض الإشراقات الكاشفة عن حقيقة الحال، والمخبرة

---

(١) كُتبت هذه الكلمات، أيام احتدام التنافس على كرسي الرئاسة.. عبر ما ادُّعي أنها انتخابات نزيهة، وهي التي أتتْ بالإخوان المسلمين للرئاسة، إلى حين.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

عن سرِّ النبوغ ثم سوء المآل. وغير ذلك مما يتعلَّق بالأنثى المقدَّسة التي حكمت الديار لأكثر من عشرين سنة، وما آل أمرها قَطُّ إلى النسيان، ولن ينطوي ذكرها أبدًا ما دام الناس يحجُّون إلى معبدها القائم في حضن الجبل الغربي وهو المحلُّ الذي لا تغيب شموسه، ولا تتقادم البهجةُ التي في وجه عروسه.

في الثلث الأخير من الليل، تجلَّى لي العقلُ الفعالُ عند حافة اللسان الصخري الممتد في البحر، الممتدة من خلفه سبعةُ أبحر. ولما رأيتُ نوره الأخَّاذ يملأ الأنحاء من حولي، استبشرتُ بتدفُّقِ الفيضِ والاستنارة، فسألتُ من فوري عما سألني عنه الطفلُ الصغير الذي لم يبلغ الحلُم، لكنه أدرك ما لم يهتم به الغائصون في الظُّلَم.. أجابني العقلُ الفعَّالُ بأنني أعرف المعلومات، فلِمَ التأخُّر عن إجابة السائل والاحتجاب خلف الحائل؟ فقلتُ: السؤالُ الطفوليُّ كان عميقًا، ويُخفي بين الطيَّات مطوياتٍ. ولا سبيل لمجاوبة السائل على ما يوجبه الرأيُ الصحيح، إلا بعد لقاء الملكة الجدَّة ومعرفة حقيقة ما جرى معها، منها.. فقال: هذا اللقاء عسيرٌ في الإسكندرية بل هو مستحيلٌ، فاذهبْ إلى الأقصر واعبرْ إلى البرِّ الغربي، وتوغَّل في الزمن حتى تصل بخيالك إلى وقتها، وتهيَّأ هناك لوقوع لقاءٍ معها قد يتم. وقد تعوق دون إتمامه العوائق، إذا عَمَّ الغَمُّ.

كان الصبحُ قد أطلَّ على العالمين، لكن ظلام النفوس بديار الأهل يحجب الرؤية، ويُنذر بالتيه. فأوقدت قنديلي وبعض الشموع، وأخذتُ زوَّادتي وكل ما يلزمني في رحلتي نحو الجنوب من هِمَّةٍ وتوْقٍ وشَوْقٍ.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في ابتداء الطريق رأيتُ الأرض التي كانت فيما سبق خضراءَ بالنماء، ثم صارت كالمآوي الرَّمَادية رُمادية. ولمحتُ شواهقَ من مبانٍ تطلُّ برءوسها من فوق البيوت، وتتهيَّأ عند أول هزَّةٍ للسقوط. وحدَّقتُ في وجوهٍ طالما تبسَّمت بالأمس وهي أنيقةٌ، ثم غدت مغبرةً يرفلُ أصحابها في أسمالٍ بالية. متهرِّئة، عتيقة. رآني رجلٌ ردَّه اللهُ إلى أرذل العمر، وأنا أُجيلُ نظري في الأنحاء متعجِّبًا من تدهور الحال، فضحك مني وهو يقول: أمَا علمت بأنه قامت في الديار ثورة لإسقاط النظام وإحلال الفوضى، فما المستغرب فيما ترى؟ قلت: قد كان هذا الهدمُ من أجل البناء.. فعبس وتولَّى عني وهو يغني بصوتٍ متحشرج، غناءً لا يليق بالطاعنين مثله في السن، فلم أفهم من مفرداته غير كلمات معدودات، استوضحتُ منها: الهدمُ سهلٌ.. إقامةُ البنيان صنعةٌ وإتقان.. الخَبَلُ. توسَّل إلى السلطان السماويِّ بالأمس الغابر، وقَدْ وصل، بعدما امتزجَ فيه الدينُ بالدَّجَل.

متغافلًا عن كل ما حولي، ومُنهكًا، مضيتُ في رحلتي حتى اشتدَّ الهجيرُ وغلب الظمأ. هممتُ إلى مجرى النيل لأحسو منه شَرْبَةً تعصمني من الهلاك، فكان هناك ظَمْأَى كثيرون يخوضون في نقائع التحاريق، ففقدتُ الأمل في الرِّيِّ أو بلِّ الريق.. وفجأة، قطعتْ طريقي الطويل تظاهرةٌ بدأت هادرةً فائرةً، ثم صارت كالمعتاد بعد حينٍ فاترةً. لم يكن فيها إلا فتياتٌ ملفوفاتٌ بالاسوداد ونسوةٌ يتَّشحنَ بأجنحة الغربان، فلا يظهر من سوادهنَّ الحالك غيرُ أحداقٍ حائرةٍ معتمة، تنظر إلى الخلف ولا ترى. فرأيت أنهنَّ عقمنَ ولن أجد فيهنَّ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ما يستحق أن يُرى، فأردت استكمال الطريق لكنهنَّ كُنَّ يقطعنه بزعيقٍ يأتي من خلف الستور الغابرة المغبرة، مُطالباتٍ بتأكيد الانهزام والخزي، بمزيدٍ من القهر والانسحاق الذي طَمَّ وحاق. فإذا بهنَّ يردِّدن الأُغنية الأُمنية، مرحاتٍ كالدجاجات المذبوحات، فيصحنَ بصوتٍ واحدٍ متخثِّر: عبودية، عبودية..

من بعيدٍ، بل من قريب، كان يرقبهن رجلٌ كَسِيفُ القلب كثيف البطن واللحية، خلفه صَفٌّ من صبيةٍ إلى الصبايا يتحرَّقون، لكنهم لا يتحرَّكون إلا بأمره، كان الرجل يهزُّ رأسه راضيًا عن المظاهرة الهادئة الهادرة. ولما مرت من أمامه ابتسم كالنمس، وتحمَّست النسوةُ واصطخب صياحُها الآتي من خلف ستورٍ حاكتها الدهور، وتعالت منهنَّ الحناجرُ المغروسةُ فيها الحناجرُ؛ فترددت في الأجواء أصداءُ أصواتهن الزاعقة بترنيمة الخلاص الأبدي: عبودية، عبودية.. فلما تعالت منهن النبراتُ، رفع الرجلُ مسبحته وعصاه محذِّرًا مما مفاده أن أصوات النسوة والفتيات عوراتٌ، من تحتها عوراتٌ ومن فوقها طاعات. فأطعنه من فورهنّ، ومررن بالتظاهرة وهنَّ صامتاتٌ أو خافتاتُ الهمس أو بالاختناق مشنوقات، وقد أدركنَ من الإشارة أن الليل قد اقترب وقربَ موعد الرجوع إلى السرير المسيَّج بالسلاسل، وعليهن الاستعداد للارتماء الذي يشتهي السَّحْق، أو الانسحاق التام، أو الزؤام[1].

---

(١) لا يصح في اللغة قول القائل: الموت الزؤام.. لأن كلمة «زؤام» وحدها، تعني: الموت السريع.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ساعة الغروب انفسح الطريق، فتابعتُ المسير وقد اتَّسع السيقُ السحيقُ، وسيق اللواتي تظاهرنَ إلى الأَسِرَّة زُمرًا، واتَّقدت تحتهن ملاءاتٌ مُلطّخةٌ باحمرار جهنم الوجدِ. والجنةُ من فوقهنَّ أُزلفت للأزواج ولكل محتاجٍ ومهتاج، ففاز الذي انحاز بكثيرٍ من المقاعد في سرادق العزاء. وعلى قارعة طريق وقف المنادي يدعو الناس للإسراع إلى السرادق، لأداء الواجب المفروض عليهم من قبل قرونٍ، والتعزية في الفقيد الذي قضى فجأةً بعدما كان هائجًا يوم الثورة كالثور، ثم صار متواريًا بعد الفورة كالفأر، ثم انسحبت منه الأنفاس حين داسته دبابةٌ كانت تهرب من طنين ذبابة. ومن دون قصدٍ، دهست الدبابةُ عند هروبها الطيور الخضراء الأسيرة في الشَّبَاك، أو تلك التي كانت تلتقط الحبَّ من حول الشَّرَك المنصوب على حافة الشُّبَّاك.

قلت في نفسي: الآن، لا بد من التعزية وأداء الواجب المفروض، وإلا فُرضت عليَّ القيود.. دخلتُ السرادق ويا ليتني ما فعلتُ، فقد كان المقرئ يَلْحنُ في الذِّكْر الحكيم، ويحرِّف الكلام عن مواضعه فيخلط بين آيات المتقدِّمين والمتأخرين. قبل أن أفرَّ من قلب السرادق، سمعتُ منه كثيرًا في التخليط الذي يصعبُ فهمُه ويثقلُ هَمُّه، من مثل قوله: الويل لنا لأن ظلال المساء امتدت؛ كما هو مكتوب. الإفلات بالانفلات نصيبُ المفسدين القائلين بل نحن المصلحون؛ كما هو مكتوب. كل مكافحٍ كادحٌ إلى سيده كدحًا فملاقيه، ليُعاقب على ما كان من الغواية فيه؛ كما هو مكتوب. للثائرين نارٌ أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه؛ كما هو مكتوب. لا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

خلاص من الخطايا والعيوب، إلا بإنزال البلايا والخطوب؛ كما هو مكتوب.

أزعجني الخطَلُ، ولم يرق لي هذا الخلطُ والخبَلُ. فخرجتُ مُسرعًا من عتمة هذا السرادق المحروس بالمتأنِّقين، الحاملين أخشابًا على هيئة بنادق. وأخذتُ أسابق الوقت كي ألحق الموعد القديم المضروب عند المعبد ذي الطوابق الثلاثة والأعمدة الكثيرة، فوصلتُ فجرًا إلى البقعة المباركة من الجانب الغربي من نيل الأقصر، فوجدت المكان الفسيح المنحوت في سفح الجبل خاليًا من الزوَّار والسائحين. استخبرتُ فقيل لي إن الطرق مقطوعةٌ وكل الآتين كالمحصورين، والصبية الذين رأيتهم بالأمس متحرِّقين، يقفون اليوم متحرِّشين بكل أنثى وأيِّ قادم، آملين في تخلية المكان بالكلية، ليتمكنوا من تكسير الأصنام وتسوية عالي البنيان بالأسافل، فيتسع الفضاء لرفع النداء، ولا يكون في الأرض دينٌ، غير الدين الذي به يؤمنون.

.. بقيتُ في الفراغ وحدي، حينًا، حتى تذكرتُ إشارة العقل الفعَّال فعدتُ في الزمان بما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام من سِني بني الإنسان، التي بها يعدُّون وفيها يتخالفون. فرأيتُ آنذاك القَفْر الممتدَّ أمام المعبد، وقد صار فجأةً أرضًا خضراءَ فوَّاحةً بأشجار البخور ودُخَانه. ورأيتُ في الأنحاء كثيرًا من النخيل قد اقترب منه النيلُ، ورأيتُ على الواجهات رسومًا بديعة تُبهرُ الأعينَ ألوانُها، وعلى الأعمدة تماثيلَ رشيقةً تسرُّ رؤيتها الناظرين.. في الحديقة الغنَّاء التي قبالة المعبد، رأيتها، فعرفتها من اللمحة الأولى، وفرحتُ حين رحتُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

نحوها يحدوني شغفٌ، وتحوطني بهجةٌ من تلك التي تأتينا أحيانًا من خارج الكون.

جلستُ في حَضْرةِ الربةِ الجدَّةِ الملكةِ، مشدوهًا، أتأمَّلُ وحدتها بين الأشجار الفواحة بالعطور، وصدرها العاري المكشوف بلا سفور، وبريق عينيها اللامعتين ببريق البهجة وعميق الأحزان.. سكنتُ أمامها والتزمتُ الصَّمْت الواجب لتوقير السَّمْت، إلى أن سألتني برفق الأمهات عما أريد، فسألتها عما أرى حولي من جمالٍ ممزوج بالجلال.

قالت: هذا نتاجُ امتزاج اللاهوت بالناسوت، فهل فهمت الإشارة أم تبغي الصريح من العبارة؟ قلتُ: أفيضي بشيءٍ مما تكتمين، فقد أتى بي إليكِ سؤالُ طفلٍ من أسباطك يُريد الإجابة بالتفصيل، ولن يقنع من العلم الوفير بالقليل.. فقالت بعدما تبسَّمت بشفتي امرأةٍ لها بهاءُ الإلهات: أما هذه الأشجار التي ترى فهي رمز السلام، وقد جلبتُها قبل أعوامٍ طوال من الأرض البعيدة التي يسكنها السودان من الناس، والأحباش والزنج، لأنني رأيتُ في حرب الذكور خسارة. فأخذت قومي إلى طرق الرفاة والتجارة، وأرسلتُ القوافل إلى بلاد «بُنت» وسائر الأنحاء. فعاش الناسُ سعداء وكفُّوا عن المريع من الاقتتال، وساد السلام ولَان الحديد، منذ عشرين عامًا أو يزيد.

وأما كشفي لصدري فهذا ديدنُ الأمهات، المرضعات، من قبل هجمة الجاهلية والافتئات وتسمية الأعضاء عَوْرات؛ تعميةً عما في

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

نفوس المرضى من الآفات، وفاتهم التداوي من أدوائهم العضال، فرفعوا على الأمومة رايات القتال وتباهوا بكل سَفَّاحٍ قتَّال، واستمعوا للمعتوهين وسعوا خلف ديدان الأرض السارية في بادية اليهود، فأضلَّهم ما كانوا يتوهَّمون.. فرضوا على خيارهم رهبانيةً ابتدعوها، وخرَّبوا معبدي بقدر ما استطاعوا، وسكنوه بعدما أسموه «الدير البحري» في المائة السابعة بعد ظهور البشارات التي ظنوا، وبها آمنوا، وباسمها تناحروا وذبحوا بعضهم بعضًا. ثم جاءوا لداري الأُخروية يطلبون الأمان. ومن يومها سُمِّي المعبدُ ديرًا، وسُميت الديانةُ إدانةً، والرَّبةُ عبدةً أو أَمَةً.

تفضلتْ فأضافتْ: أما الناسوت واللاهوت، فقد مزجتُ بينهما بعدما كانا فيَّ ينفصلان. فمن حيث ناسوتي، آلَ إليَّ الملك الذي تراه الآن مزدهرًا بعموم البلاد، فورثته عن أسرتي التي ملكت الزمام في الزمان الذي تسمونه «الدولة الوسطى» تحاشيًا لاسم المملكة الوسطى. ومن قبل أسرتي، تسيَّدتْ ستّ عشرة أسرةً من سلالة الناسوت. كانت قبلها أسرٌ مبكرةٌ حاكمة، فيها ملكاتٌ مُبجلاتٌ وملوكٌ عظامٌ كالملك «وناس» الذي غفل عن وقته القديم الناسُ. فأراحوا أذهانهم من ذلك الأمد السحيق، بأن أسموه «زمن ما قبل الأسرات» في قول، وفي قول آخر «ما قبل التاريخ». ولم يعرفوا أنهم على القولين مخطئون، فليس وراء التاريخ إلا تاريخ، ولا يقدح في ذلك فقدان الآثار وتهدُّم المعمار. فلما جاءت للحكم أسرتي السابعة عشرة، كانت للنساء مكانةٌ مستمدةٌ من تقديس الربات، وعلى ذلك نشأتْ والدتي «أحموسا» وأنشأتني. غير أن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

رجالنا كانوا يحاربون، فيفقدون الحسَّ المقدَّس رويدًا، ورويدًا يتخفَّفون من تبجيل الإناث، فيختلط عقلهم ويلتاث.

وأنعمتْ فأردفتْ: جدي «تحتمس الأول» كان على العهد القديم مقيمًا، فعاش في ماعت، ثم آوى إلى الظلِّ في سلامٍ انتظارًا لميقات الخروج إلى النهار. أما أبي فقد انهار من قلبه الجدار، فاستولد من غير أمي وجاء بولدٍ من إحدى المحظيات. فلما توارى، اختلف الناسُ: هل يحافظون على نقاء الملكية في أنثى صريحة النسب، أم يملِّكون الذكر الذي جاء عاريًا من أي حَسَب. فأفتى الأجلاء من كهنة آمون، بأن يكون الأمر الملكي دُولةً بيننا، بأن أتزوج أخي الوضيع على أمل أن يرشُد ولا يضيع. فكان كما قالوا. غير أن زوجي المتملِّك بنصف الناسوت، كان قلبه خاليًا من صفو اللاهوت. فما كدتُ ألد له طفلة على هيئة الربَّات، حتى حام كأبيه حول المحظيات. والولدُ صِنو أبيه. فاستولد من إحداهنَّ ولدًا نازعني في العرش، وطمس آثاري، وأجَّجَ لهيبَ الشِّقاق في الأنحاء بعدما كنتُ قد بسطتُ على الأرض السلام.

وتكرَّمتْ فأكملتْ: أما اللاهوت، فقد سعيتُ في ابتداء حكمي إلى سقفه الأعلى، بعدما رأيتُ الذكور الذين يحاربون تحت راية الربة «سخمت» التي هي بالوجه الآخر «حتحور». كانوا إذا عادوا من الحرب وهم يجعلون لأنفسهم رمزًا من تاسوع طيبة، هو «حور» المسمى بلسان عيال اليونان حورس؛ لأنه حسبما فهموه إلهٌ مذكَّر يناسب الذكور. ولم يدركوا أن سرَّ الألوهية المؤنثة الكامنة خلف ميلاده، من غير نكاح، هي أمّ النور الأزلي الأبدي «إسّت» المسماة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

التباسًا إيزيس.. فلما رأيتُ الحال قد اختلط، علوتُ فوق تاسوع طور كله، وألحقتُ ناسوتي باللاهوت الأعلى المحتجب خلف السماوات العُلى. وجعلت لقبي الجامع بين الناسوت واللاهوت: الحاضنة لنور آمون. وبذلك أقمتُ بُنياني واحتملتُ آلامي، وعلوتُ إلى عنان آمون المنطوق أحيانًا «آمن» وأحيانًا «إمن» وأحيانًا «آمين».

وأما هذا المعبد البديع الذي تراه الآن في قمة تألُّقه، فهو هدية المهندس «ستموت» الذي يسمي نفسه المحبّ لماعت، وهو توأمُ روحي، وهو الحبيب الذي هوَّن عليَّ الأهوال. وقد هندس لي هذا الأثر الخالد كي أُدفن فيه بعد حين، وجعل بين مدفني ومدفنه سردابًا، حتى نهتدي لطريقٍ واحدٍ ونجتمع يوم الخروج إلى النهار.. يوم البعث.. يوم نولد من جديد، كهُدْهُدَين.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ اغترابُ تي، وغُربةُ نفرتيتي ◊

مفعمًا بوجدٍ عظيم، عُدتُ من عاصمة الألمان «برلين» بعدما جرى معي نبأ جليلٌ، سوف أتلو عليكم منه ذِكْرًا.. كنتُ هناك في ساعة ظهيرةٍ لا صخب فيها، أسيرُ وحيدًا على حافة الشوارع العريضة البرّاقة المحفوفة بالاخضرار، فهتف بي من حيث لا أرى صوتٌ يقول صاحبه: ما دمتَ قد اقتربتَ، ولا شاغل الآن لكَ. المتحفُ المصريُّ ببرلين مفتوحٌ، فادخله لترى البهاء المحيط برأس الملكة المصرية نفرتيتي، وربما تجود عليك إذا زرتها وآنست وحدتها، فتبادرك بحديثٍ مخصوصٍ، لأن مثلك يثير فيها الحنين ويحدو بها إلى البوح.. سألتُ: وما الذي أتى بها إلى هنا؟

أجابني رجلٌ أشعثُ كان يجلس على واحدةٍ من الدِّكَك المبثوثة بين ظلال الأشجار، وقال بنبرةٍ خالطةٍ بين التوقير والتحقير، ما ترجمته أنها هنا أسيرةٌ ومبجَّلة، ولو بقيت في بلادكم لصارت حُرَّةً ومهانةً، كبقية الناس والآثار. رأيته لا يضبط الكلام، فاستدركتُ عليه مُصحِّحًا بأن الأسير لا يُبجَّل، ولا يُهان الأحرار.. وأردفتُ أن سهم جوابه طائشٌ، وليس فيه ردٌّ على ما سألتُ.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

احتسى الرجلُ شربةً من الزجاجة التي يمسك بعُنقها، ثم جاوبني بكلماتٍ فاحشات الوضوح والصراحة: سأُخبرك بسبب مجيء الملكة إلى هنا، فاستمعْ بإنصات الصحو لكلمات المخمور المغمور. قبل عشرات السنين، رجلٌ ألمانيٌّ وجد جَدَّتك مدفونةً تحت رمال العاصمة المصرية المندثرة، المسماة اليوم «تلّ العمارنة». فخبّأها عن العيون وأخذها خفيةً إلى هنا، كيلا يكسّرها كاسرٌ، أو فاجرٌ من أحفاد عُمران المتّقين، تقرُّبًا لمعبود العمارنة وأبناء عمومتهم من العبادلة والعوادلة والجواهلة والسوافلة، الذين هم اليوم في دياركم كثيرون.. قلتُ: كذبتَ وافتريتَ، فما كان لأيدي هؤلاء في تخريب الآثار نصيبٌ كهذا الذي اقترفه سابقوهم، وها هو رأسٌ آخر للملكة لا يَزَال تمثاله محفوظًا في المتحف بديارنا القاهرية، ولم تمسّه بالسوء أيدينا. فنحن الحافظون، المعتبرون بالآثار الباقية عن القرون الخالية.

اشتطَّ الرجلُ المخمور، وكسر على الأرض الزجاجة التي كان يسكر منها في وضح النهار، وانهار فوق انهياره وهو يقول ما معناه: الأوهامُ تحوطكم لفقدانكم الذاكرة في موطن الغرائب وبلد العجائب، حيث المعكوسُ غالب. أَنسيتَ كيف انتُهب متحفكم يوم الثورة العارمة جهارًا، وأُلقيتْ في النيل قِطَع من الآثار لصرف الأنظار عن فُحش النظام الذي ثار عليه الأحرار؟ أم تراك غفلتَ عما يعيثُ اليوم من دودٍ ويهودٍ بدياركم التي فيها الرئيسُ حبيسٌ، والنفيسُ رخيصٌ. دمه على الأرصفة نازفٌ فائرٌ، والشاطرُ يغامرُ من بعده شاطرٌ، والتمثال الذي بين أيديكم ليس ملوَّنًا كالذي

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

هنا، وأنتم قومٌ تكرهون الألوان. فاحمد لنا أننا نزعنا عنكم التمثال لنحفظه من الزوال، وإذا كنتم من الراشدين لما نهبكم كُلُّ الأقربين والأبعدين.

ابتعدتُ عن السكران وفي حلقي غُصَّةٌ، وصَمَمتُ أسماعي عن مجاهرته بالسوء. وقد ساءني ما قال حتى كدتُ أفارق الموضع خاليَ الوفاض، والقلبُ فيه ما فيه. لولا أن الحال انقلب بي إلى الضِّدِّ فتركتُ الجذبَ والشَّدّ، حين مررت ببوابة المتحف «المصري» فأشرقتْ في سمائي، ابتسامةُ حوريةٍ شقراء تقف قُرب الباب، وترنو مشجِّعةً إياي على الدخول، واعدةً بأمورٍ من بعد ذلك قد تكون. عيناها سماءٌ قد صفت، ووجهها صُبحٌ يُنير، من مناجم الذهب البرَّاق، شعرُها المنساب فوق القوام القويم. ومن صفاء السماء، زُرقة عينيها اللامعتين بألقٍ يعدُ بالنعيم.

اقتربتُ بخطوٍ متردِّدٍ، فاتَّسعتْ منها ابتسامةٌ كشفتِ اللؤلؤ المخبوء في قعور البحور، فأكَّدتْ أن العلوَّ والقاع قد يقتربان. بلسان مسحورٍ سألتها عن رسم الدخول، فقالت بالمصرية الفصيحة القديمة: ما عليك من ذاك، فلا مقابل لزيارة الأحفاد للجدّات، بل لهم ثوابُ صلةِ الأرحام. ولولا أن الملكة أرادت لقاك، لما قادتك إلى هنا خُطاك..

في ردهات المتحف درتُ بين برديات ومومياواتٍ ورسومٍ لإلهاتٍ كنَّ مقدَّسات، وتجوَّلتُ مبتهجًا بين جنبات المتحف القائم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

منه طابقان.. في الطابق الأرضي على يمين الداخل، توجد غُرفة الأسرار التي ولجتُ إليها وقد انصرف الزوَّار، وآلَ النهارُ إلى خط الزوال. وأمام تمثال الملكة، وقفتُ متأملًا اقترانَ الجمالِ بالجلال. لا شيء بالغرفة إلا التمثال، ولا جامح هنا للخيال التوَّاق إلى معرفة السر الكامن خلف المظاهر والأشكال، التي هي عينُ هذا الإشكال: كيف انتهى الحالُ بالملكة بعد رفعة الشأن، إلى سوء المآل؟

أمام رأس الملكة وقفتُ على قدم الإجلال، وفي تلك الحضرة حدَّقتُ طويلًا في العنق الذي يشرئبُّ ليشرب منه العاشقُ الظمآنُ، وتأمَّلتُ لحاظ العينين المكحَّلتين بلون الليل المليء بالأسرار، والتاج الذي لا يليق إلا بهذا الرأس الدقيق السامي، والوجه المنسابة ملامحه بالرقة الحانية حول الشفتين الشافيتين الحمراوين. بقيتُ على حال الذهول وقتًا لا ميقات له، حتى إذا انتصف الليل وسطعت بالحجرة أنوار العقل الفعال، فأذهلتني الأسرارُ عن ظاهر التمثال. وأخذتني اللوامعُ من صورة الحجر إلى جوهر الخبر، فسألتُ الملكة عن سرِّ الالتباس وعن أخبارها الغابرة. فباحتْ لي من بعد طول سكون، وأفاضت بلسان الحال الراوي. فكان مما قالت:

نشأتُ في البيت الملكي بطيبة ذات التسعين بابًا، المسماة اليوم الأقصر، وكنتُ كلَّما سألت في الصغر عن معنى اسمي «الجميلة جاءت» المنطوق باللسان القديم، نفر/ تيتي، تُجيبني الملكة العظيمة «تي» بابتسامةٍ تزيد الحيرة، ومن حولي كانوا يقولون إن وصف «الجميلة» واجبٌ مستحقٌّ لي بالأصالة، وأما من حيث الإضافة إليه،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ففي ذلك أقوال: فالجميلة أتت أو جاءت أو وصلت، لأنني وفدتُ من ديارٍ بعيدةٍ لا عودة لي إليها. أو لأن ملامحي قُدَّت من البهاء النوبي الأسمر، أو لأنني ابنةُ آلهةٍ علوية ظهرت بصورةٍ بشرية، أو لأنني جئتُ إلى قلب المليك فعمرته بالتحنان والحب من بعد الخواء. أقوالٌ متفرِّقة لم يُجمع على أحدها أحدٌ، ولم يتأكَّد منها واحدٌ. وغموض الأصل زادني سحرًا، فانشغل بي وريثُ العرش عما كان أبوه «آمين حتب الثالث» يخوض فيه. فقد اغترَّ أبوه بالمجد الذي كان فيه، فطمح مثل كل الملوك إلى التفرُّد والتأليه، فلما باح بذلك لزوجته «تي» نصحته بالاقتران بواحد من آلهة الثالوث أو التاسوع المؤلَّه، لكنه طمح إلى المستحيل وأراد أن يكون الصورة البشرية لآمون. قال الكهنة للملك الذي يريد أن يتأله: إن آمون هو الخالق المحتجب العالي، ولا يمكن أن يتجلَّى بتمامه في مخلوق.. فصار معهم غير خلوق وتهدَّدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأمرهم فحملوه على محفة «آمون» وساروا به بين أروقة الكرنك، كأنه هو ربُّ الأرباب آمون. آمين.

قالت الجميلة نفرتيتي: احتارت الملكة «تي» في مراد زوجها المستحيل، وغرقت في بحار اغترابه عن أمثاله من بني الإنسان. لكنها صبرتْ عليه حتى انقضى أجله وعبر إلى الجانب الآخر وخرج إلى النهار، وأدركت خطر اضطراب الكهنة وعموم أهل البلاد بعد رحيل زوجها، فسارعتْ إلى تنصيب ابنها الذي كان اسمه «آمون حتب الرابع» ليكون له من مُلك والده نصيب. وزوَّجتني له لعله يرتاح للحنو، ويحتمل نوبات السُّعار الدافع إلى الترقي للألوهية. وقد

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أجلستنا بعد الزواج بجوارها، ليصير المجمع الملكي ثالوثًا تتآلف فيه الملكةُ الأمُّ، وابنُها الملكُ الصغيرُ، وأنا الزوجةُ الملكية.

كان ذلك سنة ستين وثلاثمائة وألف، قبل الميلاد الذي صرتم على أساسه تحسبون السنين. لكن زوجي مع مرور الأيام زاد به الخبلُ، ولم يهدهده تحناني، ولا مرح أطفالنا من حوله. وفي الحَوْل الثاني من سنوات مُلكه، أمر بتأليه أمه ليتم اغترابها ويمهد لغُربتي، ثم تألَّه هو على نحوٍ جديد وكَفَرَ كل الديانات. أراد أن يطوي عبادة الإله الأعلى، رب العالمين «آمين» فاجتهد الكهنةُ في ترويض جموحه، وأفهموه أن في اختلاف الأديان رحمةً بالمتدينين، وأن الإله الأعلى المحتجب المسمى آمون وإمن وآمين، يُمتنع تجلِّيه التامُّ في غيره. سبحانه. ومهما تعدَّدت أسماؤه وصفاته وتجلياته، فإن حقيقته واحدةٌ منذ الأزل إلى الأبد. وهو يطل علينا عبر قرص الشمس «رع» ليحمل الرحمة إلى العالمين، سواءً من عباده المتقين، أو غيرهم ممن يُلحدون ويجهلون.

وهمس إليه كبيرُ الكهنة، بأن البلاد في خطرٍ لأن فيها المطمع. ومصر مهدَّدة بالانقسام والتشرذم، إذا استدام هذا الخلافُ وتأخَّرت شمسُ آمون عن المطلع. فما استمع زوجي لكبير الكهنة ولا أيٍّ واحدٍ منهم، واستخفَّهم، بل أساء بهم ظنه وأهانهم في حضرته. وهجر الأقصر وهي طِيبة، الطيبة، وبنى في الصحراء عاصمة جديدة دعا فيها لإلهه «آتون» وأسماها: أخبيت آتون. وجعلني كاهنته العظمى، ثم جعل من ذاته بعد حينٍ هو الإله. ودهم بالدواهي كهنة آمون، وأسقط كل الآلهة وتعالى فوق «ماعت» ودعا الجميع لعبادة الرب الذي خلقه بخياله. وهو إلهٌ قديم كان من قبله خبرًا مطمورًا، وظل منسيًّا دهورًا.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

همستُ إليه بلسان الأمومة، بعد رحيل أمه «تي» عن عالم الكون والفساد وخروجها إلى النهار، راجيةً إياه أن يترك الناس أحرارًا فيما يعبدون؛ إذ لا يجوز الإكراه في الدين. فصاح: قد تبيَّن الرشد الآتوني من الغيِّ التعدُّدي، ولن يُعبد بعد اليوم في الأرض إلا «آتون» الذي هو على الحقيقة أنا «إخناتون». وليس لي رجوعٌ عن هذا الأمر الذي انحسم، ولا بأس لو تآكلت حدود مصر من أجل إعلاء الدين الواحد الجديد. قلتُ: يا زوجي الحبيب اهدأ، واعرفْ أن للناس سُبلًا في العبادة لا تُعدّ، فلا تحطنا أنت بأسوار الهجر والصدِّ، وكن إن شئت «إخناتون» ولكن دع العُبَّاد يتَّقون الذي به يؤمنون، فمَن شاء من اتِّباعك، فليؤمن بإلهك الذي هو أنت. ومن شاء فليكفر، فلست عليهم بوكيل.. لم يعجبه الكلام، وقال خَبَلًا: بل أنا هو، الإله الواحد المعبود، ولا إله غيري في الأرض ولا في السماء.

امتلأت الديار رُعبًا وانهار النظام، ولا مرام لإخناتون المتألِّه المسكين، إلا إرساء عبادة الإله الجديد. وما هو أصلًا بجديد. ولم يردع الطامعون في البلاد رادعٌ، وانتشر الفسادُ في الأرض وما عاد له من دافعٍ أو مانع.. فتركتُ حينذاك هذه الحياة المتقلِّبة الغريبة، وتقبَّلتُ موتي المبكر بعدما ودَّعت أطفالي وزوجي المحصور في بلدته الجديدة «أخيتاتون» التي خُرِّبت عقب رحيله أو ترحيله عن هذه الحياة، بعدي بقليل. وأُخذتْ أحجارها الكبار لتكون جدران معبدٍ جديدٍ، أقامه وريثه «توت عنخ آمون» الذي عاد كما يدل على ذلك اسمه لعبادة آمون، لعله يُرضي الكهنة

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

والعباد ويحفظ من الانهيار البلاد، فما استطاع.. وتشوَّهت صورتنا وكل التماثيل، وفي عموم البلاد جرى التدميرُ.

وتدهورتِ الأحوالُ مع صراع الأديان الذي به دومًا يسوءُ المآل، فلم يبق للبلاد مخرج إلا بأن يتنحَّى عن الحياة «توت عنخ آمون» ابن زوجي «إخناتون» من زوجته الأخرى. فكان الحلُّ هو رحيله عن هذه الحياة، أو ترحيله، وهو بعدُ شابٌّ صغير. ثم عُهد بالأمر إلى مجلس العسكر الذين قادهم «حور محب» فأعاد حين أراد الأمنَ بربوع البلاد، وهدأتْ أرجاءُ طِيبة وبقية الأنحاء وما عادت المظاهرات تخرج إلى الميادين. ولأن العسكريين لا يرثهم إلا العسكريون، فقد تولَّى حكم البلاد من بعد حورمحب، زميله العسكري «رعمسيس» الذي صرتم تنطقونه رمسيس، وهو الذي كان متقدمًا في السن فلم يجلس على العرش إلا لعامين، ثم أورث الحكم من بعده لابنه «سيتي» الذي أورثه لابنه «رعمسيس الثاني» فظل جالسًا على العرش سبعةً وستين عامًا.. ومضت الأيامُ.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

◊ الاختيارُ الأخطرُ: هَيَمَانُ كليوباترا، أم هَيْمَنَةُ العسكر؟ ◊

همستُ سِرًّا بما معناه: مهما غاصتْ بنا اللحظةُ الحالمةُ في الحضور الموهم بالدوام، فإن الأحوال تئول دومًا إلى تحوُّلٍ سيَّال أو زوالٍ تام.. قلتُ ذلك في نفسي وقد انقضى الوقتُ الهانئ، وتلاشت الحضْرَةُ الرؤياويةُ التي التقيتُ فيها بالجدَّة المجيدة، الملكة المتألِّهة، الجامعة بين اللاهوت والناسوت. «حتشبسوت». ثم وجدتُني من بعد انقشاع المشاهد هائمًا، وحدي، في الساحة الفسيحة التي كانت فيما سبق حديقةً، ثم غدتِ اليومَ جرداء كالحقيقة.

بقيتُ حينًا من الدهر جالسًا، حائرًا، في قلب الرَّحْبة الممتدة قُبالة المعبد الذي ما عاد مقدَّسًا، المسمَّى الآن «الدير البحري» مع أنه يخلو من الرهبان. هناك انفردتُ عن الأكوان، بينما الريحُ من حولي تسائلني: إن كان ذلك هو «البحري» فأين الديرُ القبلي؟ وبطبيعة الحال، لم أجد الإجابة. فأخذتُ أجوبُ حول الجبل الحاضن، لعله يستقرُّ في مكانه ويُخبرني عما أجاوب به الريح، لكنه بقيَ بالأسئلة يتقلَّق ولا يتفلَّق أو تتفتق من جوانبه إجابات.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مع طلوع الشمس المحلِّقة على العالمين بأجنحة «رع» الراعية لكل ساعٍ وساكنٍ، تهيَّأتُ للخروج من أفق الأقصر إلى الآفاق السكندرية الرحيبة، وقد قرَّ في قلبي أن أُعرِّج في طريق رجوعي، على البلدة القريبة المسمَّاة اليوم «دندرة» كي أُزجي الجميلَ من التبجيلِ الواجب، وأرفعَ آيات التحيّات إلى الربة الغابرة «حتحور» في قُدس معبدها النائم هناك، وهناك كانت تلقى من القدماء التقديس اللائق بكل صورها الرامزة إليها: المرأةُ الرشيقة الأنيقة، الأمُّ الولودُ عاريةُ الصدر عند الرضاعة والرعاية، البقرةُ الخيِّرة في أزمنة السلام، اللبؤةُ الناهشة إذا اهتاج القتال ولزم الاحتدامُ لحماية الحدود.. أيامَ كانت الحدود تُحمى.

في طريقي من «الدير» إلى «دندرة» نويتُ إنْ رأيت حتحور أن أعتذر منها، لعلها تغفر أو تعفو عما فعله أهلونا الجاهلون المتوهِّمون أن مستندَ الإدانة، هو قويمُ الديانة أو هو الحقُّ الوحيد الهابط في زعمهم من علياء السماء لنجدة الأشقياء، بشيءٍ فقيرٍ من مفردات المحبة. التي بها وقعتِ الفُرقةُ والمغبَّةُ، لأنها أُلقيتْ على أسماع المعتوهين، مع أن «السيد» قال: لا يُلقى الدُّرُّ إلى الخنازير.

وقد حلَّقتْ في سمائي الأماني فانتويتُ المزيد، لأن المريدَ يطمحُ لتحقيق أحلامه، ويصبو لأكثر مما يودُّ ويريد؛ ولذا، تمنيتُ أن يحضر العقلُ الفعالُ لقائي بالربة حتحور، فيرشدني بفيْضه إلى سِرِّ الإشارات التي تفيد، فأستفيد من الإجابات المزيد وأحدّ بصري وقد صار حديد التحديق. فأدرك سِرَّ المعاني التي أُعاني من معاينة رموزها، وأكابد

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الحيرة الناجمة عن جملة أسئلتها: هل كانت حتحور هي المشار إليها مَجَازًا في سورة البقرة؟ ولماذا صبرت الرَّبَّةُ على عصيان الذين دنَّسوا بالعَتَهِ معبدها، وعبدوا من بعدها الثور الرامز إلى الإله المذكَّر؟ وما معنى قول الفيلسوف المهووس بالإنسان الأعلى، نيتشه: إن المرأة إذا تجوهرت في أول أمرها تكون فراشة، فإذا ارتقتْ عن ذلك صارت بقرة؟ غير أن هذه الأماني كلها تبدَّدتْ، واختفتِ التساؤلاتُ مع تمنِّي الإجابات، حين اقتربتُ من معبد «دندرة» ورأيتُ عنده ما سوف أتلو منه ذِكْرًا.

* * *

على الجدران الشاهقة لمعبد «حتحور» رأيتُ رسمًا منقوشًا على الحجر بيدِ الخلود، يصوِّر امرأةً بديعةَ الأصابع.. أنيقةَ القوام.. رشيقةَ السيقان.. عبقريةَ القَسَمات، تُقدِّم إلى ربِّ العالمين آمين القرابين، وتسير من خلفه حذوَ خُطاه. كنتُ أعرف هذا الرسم، وقد رأيته من قبلُ مراتٍ عديدة وقفتُ فيها مشدوهًا من رقَّة النقش ودقَّة التفاصيل. لكنني لمقدورٍ قد جرى، كنت كالرجال أنظرُ ولا أرى إلا النصفَ الأسفل من قوام المرأة، وربما أرتقي بناظريَّ إلى صدرها الواعد فيسحرني عند ارتقائي انسيابُ الساقين، وانحدارُ البطن الرقيق إلى المكمن المتواري. وكان يُدهشني عند انحداري بأنظاري، رهافةُ الحذاءِ الكاشف عن روعة الكعبين، وجمالُ أصابع القدمين. فأبقى كُلَّ مرةٍ محجوبًا بالأمر الذي به يتذكَّر المذكَّرُ، فيتأنَّث المؤنَّث.. ولسوء الحال وبؤس المآل، لم أتجرَّد من قبل فأرتقي بنظري إلى أعلى الأعالي.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فلما تجرَّدتُ من الإطار، هذه المرة، رأيتُ وقد علوتُ بعينِ القلب ونَظَرِ العقل، وهمتُ، وفهمتُ ما كان في السابق عني يغيبُ بالغفلة فتفوتني الدهشةُ التي من شأنها أن تُشيب، إذا ما شبَّ التوقُ عن الطوق.. وعلى هَدْي هذا النور، رأيتُ وجه المرأة المرسومة رائقًا بلا كدرٍ، وعلى رأسها تاجُ البهاء المخصوص بالإلهة «إسِّت» المسماة إيزيس، وهو الموضوع من بعدها كالعلامة على رأس النساء اللواتي تَقدَّسْنَ في الزمن القديم.

التاجُ ذاته، الذي تُزيِّنه الأفعى المصرية التي كانت شارةَ التقديسِ القديم، ثم صارت علامة التدنيس التوراتي المقيت. عجيب. أطلتُ التحديق في ملامح المرأة، ثم قلتُ في نفسي: هذا الوجه أعرفه، ولطالما لمحته كلما سريتُ إلى اللسان الصخري آملًا في التَّماسِّ مع العقل الفعَّال، وساعيًا لالتِماس الموهوب من فيوضاته المفهِّمة.. فكنتُ في طريقي إلى تلك المشاهد البرزخية، أرى هذه المرأة وعليها رداءٌ واحدٌ، هفهاف، وليس على رأسها هذا التاج. وكنتُ من بعيدٍ ألمحها تسير وحيدةً وحائرةً، بحذاء حافة البحر المضطرم بالرموز والأسرار. وأحيانًا تجلس بأسى على صخرةٍ مستوية السطح، وتطيلُ النظر في اسوداد البحر، لترى المخفيَّ خلف تلك الليلة الليلاء وتحت هاتيك الموجات. عجيب. ما الذي أتى بهذه المرأة إلى هنا؟ ومَنْ رسمها على جدران معبد الربة التي كانت في القِدَم مقدَّسة؟ ولماذا جعلها في الصورة تسير خلف آمون وعلى رأسها هذا التاج اللائق فقط بالمتعاليات، اللواتي أزاحَهُنَّ «إيل» عن عرش اللات؟ وإن كانت هذه الفاتنة، أصلًا، من أرض الجنوب. فما

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الذي يأتي بها إلى الإسكندرية، لتسري في الليل حيرى بحذاء البحر؟ وقد غفلتُ عن سحرها الأخَّاذ في السابقات الليلية، لأنني كنتُ عنها أغضُّ النظر لظنِّي أنها إحدى بائعات الهوى الليلي، أو هي تائهة فقدتِ الملاذ فأمستْ مرتعًا لرخيص الالتذاذ، أو هي هائمة تهيِّج بالأجر الهيامَ المعلَّب. عجيب. كَمْ كنتُ ظالمًا لها، لجهالتي، وغافلًا عن أن الظنَّ لا يُغني عن الحقِّ شيئًا، بل يبدِّده. وها هي صورتها أمامي الآن، تُخبر عن أمرٍ غير مفهوم، وسِرٍّ جعلها مرسومةً على نحوٍ يحيِّر الألباب والظنون..

* * *

مَرَّ بي مرشدٌ سياحيٌّ بُصحبة فوجٍ من بنات الأفكار الأبكار، لانعدام السائحين مع انعدام الأمن. سألته عما أرى من رسمٍ على الجدران، فقال بلا اكتراث: هذا هو المعبود الأعلى «آمون» ومن خلفه الملكة «كليوباترا» التي جدَّدت في زمنها معبد حتحور، وأشاعت في جنباته الجمال والجلال والنور.. لما سمعتُ مقالته وتحققتُ من صدق كلامه، عصف بي الوجد فوجدتُني أبسط جناحيَّ إلى ناحية الشمال، ومن فوري ارتحلت عن الصعيد قاصدًا اللسان الصخري الممتد في بحر الإسكندرية. وبلا رويةٍ، من فوري سريتُ وليس عندي هدفٌ مقصودٌ، إلا لقاء «كليوباترا» في الحيِّ السكندريِّ المسمى باسمها، عساني أن أعوِّض ما فات في مرات الغفلة.. وصلتُ إلى هناك وقد انتصف الليل ونام الغافلون عن المعاني، وخَلَتِ الأنحاءُ من المعتوهين.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

على شاطئ البحر المضاءة آفاقُهُ المسائية بأنوار العقل الفعال، الساطعة بجلاءٍ هذه الليلة، لمحتُ «كليوباترا» جالسةً في موضعها المعتاد عند اللسان الصخري الممتد في البحر. هفوتُ إليها، ومن غير تدبُّرٍ أقبلتُ نحوها حتى جلستُ بقربها، وسعيتُ متعجِّلًا إلى بدء الكلام قبل السلام، بسبب غلبة الهيام. والشطط. فأشاحتْ عني بوجهها، واستدارتْ إلى الناحية الأخرى.. سكنتُ حينًا حتى لمعت بعقلي خاطرةٌ فيها مخاطرةٌ، فلم أتردَّد ورحتُ من فوري أترنَّم بأنشودة الربة الشهيرة، التي مطلعها «يوم أفني كُلَّ ما خلقت..»، فلما بلغتُ بالترنيمة المقدَّسة قولها «اسمي الحقيقي إيزيس» استدارت كليوباترا نحوي، وأسفر وجهها عن ابتسامةٍ رائقة الرونق. تُنسي الرائي أمسَه والغد، وتذهله عن الأحياء والأموات، وتُغنيه عما عداها من كُلِّ أمرٍ فائتٍ أو آت.

حين قامتْ واقفةً، سَمَقت قامتُها إلى النجوم العوالي، وتوغَّلت جدائلُها بين الهواء وسُحُب الليل.. رَنَتْ إلى بعيدٍ، لحظةً، ثم أقبلتْ نحوي يرفُّ ثوبُها الحريريُّ حول خصرها وساقيها، فكأن الحريرَ يلفُّ الحريرَ.

دَنَت كليوباترا حتى صارت مني قاب خطوتين أو أدنى، وقبالتي جلست باسمةً.. وبعدما نظرتْ في قلب عيني نظرةَ صفاء، فأسالتْ إلى البحر روحي وكاد الهواءُ يخلص إلى الهواء، أجابتني عما يجول بخاطري من دون ابتدائي بأي سؤال، فعرفتُ أنها ترى ما بداخلي كأنها أنا. وآنذاك ما ثمَّ أنا، وليس في الجهات هناك ولا هنا.. وكان مما قالته، بلغةٍ لا تشبه أيَّ كلام، ما يلي:

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

محبتي، هي التي تأتي بطيفي إلى أرض النشأة التي أنتم فيها اليومَ تسكنون، وفي الأمسيات تُحضرني إليكم الحيرةُ التي تعمُّ البلاد وعقول العباد. لأن حيرةً مثلها عاينتُ قبل ألفيْ عامٍ، وعانيتُ منها طيلة عمري الذي أنهيته انتحارًا في سنِّ التاسعة والثلاثين. مع أن الكاهنة أخبرتني في طفولتي، بأن أنثاي قد تتألَّه، إذا ما صبرتُ على الحياة الدنيا حتى أبلغ الأربعين. فما صبرتُ، لأن الصبر محمودٌ لأجل الحبيب، ومذمومٌ إن كان عنه. وشتَّان بين ما نرغب عنه، وما نرغب فيه. ما نهربُ إليه، وما نهربُ منه. وقد أحاط بي المقدور الذي ليس منه هروب، وتطرَّقتْ بي السُّبلُ إلى أمورٍ لم يكن أمامي سبيلٌ للسكوت عنها، أو الصبر عليها. فمن ذلك حرصهم على وصفي بالملكة اليونانية، لا المصرية. أو، يزعمون أنني مزدوجة الجنسية، وغايتهم من ذلك إبعادي عن عرش أجدادي المتعاقبين هنا، لقرابة قرونٍ ثلاثة من الزمان. وكُلٌّ منهم، نشأ مثلي على هذه الأرض وفيها دُفن بعد الممات. وما خطر ببالهم يومًا أيُّ شكٍّ في الهوية المصرية، أو ظُنَّ فيهم ازدواج الجنسية.. فمنذ زمنٍ بعيد، جاء جدي الأول الملقب بالمنقذ «سوتير» واستقر بهذه البلاد التي قيل له إن أجداده الغابرين، وفدوا منها قديمًا إلى جزائر اليونان. فقال بلسان حاله وأفعاله: إن مَنْ كان ينتمي لأرضٍ لا يحتمي بسيرة أجداده، بل بعمله في دنياه.. وعلى تلك القاعدة سار بالحسنى في حُكم البلاد، وجعل عاصمتها الإسكندرية إحياءً لاسم قائده الذي قضى قبل الموعد المعتاد، وأقام لجثمانه مقبرةً تليقُ بالروَّاد.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وقد تسامى جدي الأول ولم يتحاقر، فيسمِّي المدينة باسمه مثلما يفعل الملوك العساكر. الملوك العسكر، حسبما سوف يظهر، هم سِرُّ محنتي وسببُ بلاء العباد والبلاد.. وسأخبرك بطرفٍ مما جرى لي، على أيديهم المخضَّبة دومًا بالدماء.

وصحيحٌ أن جدي الأول «بطليموس سوتير» كان في أول أمره عسكريًّا، لكنه استقام على النهج الإنساني فنسي النزعة البدائية، وعاش كاملًا حتى النزع الأخير. ومن سلالته توالت على العرش ملكاتٌ يُلقَّبنَ كلهنَّ «كليوباترا» وملوكٌ يلقبون جميعًا «بطليموس» فكنتُ كليوباترا السابعة، ابنة بطليموس الثاني عشر الملقَّب بأوليتوس؛ يعني الزمَّار؛ لأن خديه كانا منتفخين، كخدود العازفين على المزمار. فأيُّ عراقةٍ في المصرية تكون لي، أكثر من ذاك؟ وأنا التي تكلَّمتْ باللسانين المصري واليوناني، لأن الأول لغة قومي، والآخر لغة المعارف والفنون في عصري. وأنا التي جَعَلتْ شعارها الأعلى الموضوع فوق شعرها، هو الربة المصرية إيزيس. وفوق رأسي وضعتُ تاجها المزيَّن بالرمز المقدَّس الأعلى «الأفعى» مثلما فعلتْ من قبلي كل الملكات المصريات، وخصوصًا منهنَّ حتشبسوت التي حكمت مثلي إحدى وعشرين سنة بالتمام والكمال، ونفرتيتي التي ابتُليت بحماقات الرجال مثلما ابتليتُ.. وقد جَدَّدتُ المعابد تقرُّبًا بذلك إلى المعبود المصري الأعلى «آمون» وقدمتُ له القرابين، وفق ما هو مرسومٌ ومكتوبٌ على جدران دندرة. فكيف في مصريتي يتشكَّكون؟ وللأوهام يردِّدون وهم يأملون في شقِّ الصَّفِّ، وتشويه

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الكفّ التي امتدت عبر ربوع البلاد، بعدالة ماعت وتقديس إيزيس. فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون؟ لا بأس، سوف تُكتب شهادتهم وسوف يسألهم عند البعث آمون، فأين ساعتها سيذهبون؟

ولما مات أبي، أو هو بالأحرى خرج إلى النهار، كنتُ الكبرى بين بناته والبنين. ومن هنا تملّكتُ مكانه، فأثرتُ حفيظة سكان الخيام المجاورة، ممّن يرون الصحراء شاسعةً ولا يصلح لحكمها إلا الرجال. فاسترضيتهم بإجلاس أخي الصغير ذي الأعوام الاثني عشر، على العرش إلى جواري. وجعلته معي ملكًا متوَّجًا، وسككتُ العملات وعلى الوجهين صورتانا، وصيَّرتُ اسمه بطليموس الثالث عشر.. لكنه بعد سنين، ولسببٍ غفلتْ عنه الأذهانُ في ذاك الحين، تحيَّن الفرصة واحتال حتى جمع حوله المشبوهين من أعضاء مجلس الشيوخ المسمى «سناتو» ومجلس العسكر الذين تركوا الحدود واندسوا بين بيوت المدينة «العاصمة» مع شراذم الأعراب الأغراب، الحفاة العراة الذين كانوا من قبل يمرحون في صحراواتهم المحدقة بالمملكة.

فلما وجد الصغير أن الشتات من حوله قد اجتمع، هاج طمعُه واتسع، واحتال حتى جعل لقبه «ديونيسوس» وتعلَّل بأنه المعبود الذي يحبه الناسُ في الإسكندرية. فكاشفته بما أرى، وكشفتُ له خدعة اللقب الخفية التي لا ينتبه إليها إلا الأريبُ الفطِن. قلتُ لأخي بوضوح، إن الذين يَلْتفّون حوله من البدو والعسكر لا يُخلصون، وهم يَتَلَفَّتون إلى السلطة ويحتالون لتكريس العسكرية وعبادة الذكورة. فلم يفهم ما أقولُ. أفهمته برفقٍ أن اللقب الذي اختاره،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

هو فيما يزعمه الرواة اسمٌ لنصف إله، فأبوه كبير آلهة اليونان اللاهية «زيوس» وكانت أمه فتاةً مسكينة من بني الإنسان، ترعى أغنامها بالناحية الخضراء من ساحل إفريقيا، وهي المسماة لاحقًا «تونس». ولما رآها «زيوس» فتاةً جميلةً، أحبَّها وصار يزورها، فصارت حُبلى منه بولدٍ. ولمكيدةٍ قد جرت، ألحَّت الحُبلى على «زيوس» ليتجلَّى لها بصورته كمرسلٍ للصواعق، وأصرَّتْ. فلما فعل تفتَّتتْ واندكَّت أركانها، فالتقط زيوس بذرة الجنين وشقَّ فخذه ووضعها فيه، فاكتمل فيه الجنينُ حتى موعد ميلاده الثاني من فخذ أبيه، ولذلك صار اسمه «ديونيسوس» أي: المولود مرتين.

لم يفهم أخي الإشارة، وقال بلسان البُلهاء إنها محض حكاياتٍ أو هي أساطيرُ الأولين. فشرحتُ له ما غاب عنه، وأوضحتُ أن الناس أحرارٌ فيما به يؤمنون، ولا يجوز الإكراه في الدين، ولكن الذين صاغوا الحكاية ونشروا القصة ماكِرون. وقد أرادوا بإحياء الحكاية الإيحاء للعامة بأمورٍ مريعة، منها أن الآلهة تشتهي البشر، وأن الأساس هو الإله الذكر، وله من القدرة ما قد يشارك به الأنثى فعلها السحري المقدس. الذي هو «الإنجاب». ليجعلوا المرأة بهذا الوهم مثل الوعاء المجاني، المجرد من المعاني، ثم من بعد ذلك ينسبون المواليد للآباء ويجحدون الأمهات. وهؤلاء لأنهم عسكريون، يرون الذكورة هي الأصل المصون وعلى العرش العلوي والأرضي يجب أن تكون. فلا قداسة عندهم للنساء، وإنما محلهنَّ المختار هو الفِرَاش لإمتاع الفَرَاش، وحَوْشُ البيت لإعداد الطعام، وسهر الليالي لرعاية

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الأطفال. وهُمْ وحدهم العظماءُ المدافعون، والقتلةُ الممدوحون، والأقوياءُ المطلوبون. وأما المدنيون فهم عندهم كالنساء مخنَّثون، وعليهم أن يكونوا للعسكر رعيةً محكومين.

لم يفهم أخي الإشارة، وقال بلسانٍ بدويٍّ عسكريٍّ إن الفيصل بيننا الحربُ، وزعق مناديًا على القتلة وحَمَلة السيوف. فاستعنتُ على عسكره بعسكريٍّ شهيرٍ كان يسكن وراء البحار اسمه «يوليوس» يلقِّبونه «قيصر»، فنصرني وصار أمام الناس زوجي، وأبا طفلي الصغير «قيصرون»، وقد اعتقدتُ سرًّا أنه كان محض بدنٍ أتاني من خلاله الإله الأعلى «آمون» ومنه أنجبتُ ولدي. وعلى ذلك استقام الأمر حينًا، فعدتُ للاشتغال بالمعرفة إلى حينٍ، واستمرأتُ العيش الآمن في خيمة العسكر، وعاودت في سماء الإنسانية هَيَماني وهُيَامي بالعلم والفنون، وأعدتُ مجد المعهد العلمي والمكتبة التي كانت قد احترقت. وفي لحظةِ كشفٍ، كُشف لي أن زوجي الجالس بجواري على العرش، ليس حسبما ظننته «صورة آمون» وإنما هو محض عسكريٍّ جلس ولن يقوم. وهل رأى أحدٌ عسكريًّا يجلس على الكرسي، ثم طواعيةً يقوم؟ فلما نبَّهني هذا الكشفُ الساطع، أفقتُ من هيماني وقلتُ في نفسي: سأصبر على بلواي وأرتضي الحال الذي استجلبته لنفسي، بسبب ظني أن السيف والقلم قد يتآلفان، ولسوف أسكتُ حتى حين.. وحين اغتال أعضاءُ المجلس في روما «قيصر» رأيت أن أتحرَّر من تحرش العسكر، فما استطعت. فعاودت الكرَّةَ الخاطئة، واستعنتُ من جديد على العسكر بالعسكر.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وبعد ممات يوليوس قيصر، وثقتُ بعسكريٍّ آخر هو «ماركوس أنطونيوس» فنازعه عسكريٌّ آخر هو زميله القديم «أوكتافيوس» وجرت من جديد حروبٌ ضروس، فعرفتُ أن «النظام» العسكري واحد، مهما اختلفت الأسماء والشخوص.

وفي لحظةٍ مريرةٍ، رأيتُ أنني أخطأتُ لأنني دفعت عني العسكريين بالعسكريين، وظننتُ بأنهم يُغيثون وهم في الحقيقة يهتبلون الفرص وإذا جلسوا لا يقومون.. وفي لحظةٍ فارقة، تحقَّقتُ من أن العسكرية تطيح بموروث الأنثى المقدسة، التي ابتدأت بها الحضاراتُ.. وأدركتُ أن الهيمان في أفق الإنسانية السامية، لن يتيسَّر مع هيمنة العسكر. ورأيتُ أن الزمان قد دار واستدار وانتكس، فاختلط الأمرُ البديهيُّ وانعكس، وأيقنتُ بأن الخلاص مستحيلٌ، والصبر على استجلاب المصير مذمومٌ، فتركتُ لهم الحياة الفانية وحييتُ إلى الأبد، بلدغاتٍ من رمز إيزيس المقدس، الأفعى.. الخفية.. العصية على الأفهام.

* * *

انقضى الليلُ بغياب القمر الذي تشقَّق، ورأى الناسُ أن الشمسَ تستعد لسطوعها فاستعدوا للنزق.. ولمَّا كثر حولي الصخبُ وجدتُني قد صرتُ وحدي، وتلاشى المشهدُ وغامت ملامح كليوباترا في أضواء النهار، فقمت متثاقل الخطى قاصدًا داري، ودخلتُ أضيق الغرف على أمل الانفراد والسكون حتى المعاد، ولكن دعاني الشغفُ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

إلى معرفة الأخبار، فأدرتُ المؤشر بين عشرات النشرات. فكانت كلها تذيع خبرًا واحدًا يقول إن المجلس جالسٌ، سرًّا أو علانية[1].

ضاقت بي الأرضُ بما رحبت، فخرجتُ إلى شرفتي فكانت تحتها طفلةٌ تشدو بكلماتٍ لا تناسب سِنَّها الصغيرة، أصغيتُ على مضضٍ إليها حتى تفهَّمت الأغنية، فبدت لي مثل النبوءة التي تقول:

مادام للعسكر القرارُ،

ستدومُ بالديار النارُ.

فلأصحاب الهيمنة السِّتَارُ،

ولأهل الهَيَمَانِ انتحارُ.

فامرحْ في الأنحاء يا دودَ الأرْضِ،

فالقيامةُ آذنت لك بهَتْكِ العِرْضِ،

وأسقطتْ أحكامَ السُّنَّة مع كل فَرْض.

فلا كان مَن استكانَ،

واستعلى حينًا ثم هانَ، وارتضى الذلَّ والهوانَ.

---

(١) كتبتُ هذا الكلام ونشرته، أيام كان الجدل يشتعل تحت مظلة السؤال: هل يترك المجلس العسكري صولجان السلطان، أم يسلِّمه للشعب والغلمان؟ ولم يفهم المتسائلون سرَّ المناولة التي كانت تجري تحت الأنظار، في عتمة النهار.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أعمال د. يوسف زيدان

أولًا: الكتب المؤلَّفة

١ ـ عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية (تأليف). الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب).
٢ ـ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي (تأليف). دار ن/ القاهرة.
٣ ـ شعراء الصوفية المجهولون (تأليف). دار ن/ القاهرة.
٤ ـ الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر (تأليف). دار ن/ القاهرة.
٥ ـ عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب (تأليف). دار الجيل/ بيروت.
٦ ـ التُّراث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات (تأليف). دار الأمين/ القاهرة.
٧ ـ بين البحرين «نصوص نقدية». دار السعيد/ القاهرة.
٨ ـ ابن النفيس، إعادة اكتشاف (تأليف). دار الشروق/ القاهرة.
٩ ـ حَيّ بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها. دار ن/ القاهرة.
١٠ ـ التصوف (تأليف). دار نهضة مصر/ القاهرة.
١١ ـ المخطوطات الألفية (تأليف). دار ن للنشر/ القاهرة.
١٢ ـ ظِل الأفعى (رواية). دار الشروق/ القاهرة.
١٣ ـ كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس (تأليف). دار نهضة مصر/ القاهرة.
١٤ ـ عزازيل (رواية) دار الشروق/ القاهرة.
١٥ ـ اللاهوت العربي وأصول العنف الديني (تأليف). دار الشروق/ القاهرة.
١٦ ـ النبطي (رواية). دار الشروق/ القاهرة.
١٧ ـ محال (رواية). دار الشروق/ القاهرة.
١٨ ـ متاهات الوهم (تأليف). دار الشروق/ القاهرة.
١٩ ـ دوامات التديُّن (تأليف). دار الشروق/ القاهرة.
٢٠ ـ فقه الثورة (تأليف). دار الشروق/ القاهرة.
٢١ ـ جونتنامو (رواية). دار الشروق/ القاهرة.
٢٢ ـ فقه الحب (تأليف). دار الرواق/ القاهرة.
٢٣ ـ فقه العشق (تأليف). دار الرواق/ القاهرة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

٢٤ ـ شجون مصرية. دار ن للنشر/ القاهرة.
٢٥ ـ شجون عربية. دار ن للنشر/ القاهرة.
٢٦ ـ شجون تراثية. دار ن للنشر/ القاهرة.
٢٧ ـ شجون فكرية. دار ن للنشر/ القاهرة.
٢٨ ـ نور (رواية). دار الشروق/ القاهرة.
٢٩ ـ فردقان (رواية) دار الشروق/ القاهرة.
٣٠ ـ حل وترحال (مجموعة قصصية). دار الشروق/ القاهرة.
٣١ ـ فوات الحيوات (مجموعة قصصية). دار الشروق/ القاهرة.
٣٢ ـ أهل الحي (مجموعة قصصية). دار الشروق/ القاهرة.
٣٣ ـ غربة عرب (مجموعة قصصية). دار الشروق/ القاهرة.

ثانيًا: الكتب الأكاديمية

١ ـ المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمن السلمي (تقديم وتحقيق). دار ن/ القاهرة.
٢ ـ شرح فصول أبقراط لابن النفيس (دراسة وتحقيق). الدار المصرية اللبنانية/ القاهرة.
٣ ـ ديوان عبد القادر الجيلاني (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر/ القاهرة.
٤ ـ ديوان عفيف الدين التلمساني (دراسة وتحقيق). دار الشروق/ القاهرة.
٥ ـ قصيدة النادرات العينية للجيلي مع شرح النابلسي (دراسة وتحقيق). دار الجيل/ بيروت.
٦ ـ رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر/ القاهرة.
٧ ـ المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). الدار المصرية اللبنانية/ القاهرة.
٨ ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر/ القاهرة.
٩ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر/ القاهرة.
١٠ ـ فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى (دراسة وتحقيق). دار سعاد الصباح/ القاهرة.
١١ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الأول). معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.
١٢ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الثاني). معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.
١٣ ـ نوادر مخطوطات بلدية الإسكندرية (كتالوج مصوَّر). برنامج الأمم المتحدة للتنمية/ مكتبة الإسكندرية.
١٤ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الأول). معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

١٥ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الثاني). معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.
١٦ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الثالث). معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.
١٧ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (المخطوطات العلمية)/ مكتبة الإسكندرية.
١٨ ـ بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية (كتالوج مصوَّر)/ مكتبة الإسكندرية.
١٩ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي (التصوف، التفسير، السيرة، الحديث)/ مكتبة الإسكندرية.
٢٠ ـ المتواليات «دراسات في التصوف». الدار المصرية اللبنانية/ القاهرة، بيروت.
٢١ ـ المتواليات (فصول في المتصل التُّراثي المعاصر). الدار المصرية اللبنانية/ القاهرة، بيروت.
٢٢ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التصوف وملحقاته»/ مكتبة الإسكندرية.
٢٣ ـ فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور. مؤسسة الفرقان/ لندن.
٢٤ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التاريخ والجغرافيا»/ مكتبة الإسكندرية.
٢٥ ـ فهرس مخطوطات شبين الكوم. مؤسسة الفرقان/ لندن.
٢٦ ـ فهرس مخطوطات المعهد الديني بسموحة/ مكتبة الإسكندرية.
٢٧ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي «أصول الفقه وفروعه»/ مكتبة الإسكندرية.
٢٨ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المنطق»/ مكتبة الإسكندرية.
٢٩ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «الحديث الشريف»/ مكتبة الإسكندرية.
٣٠ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا. معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.
٣١ ـ فهرس مخطوطات دير الإسكوريال/ مكتبة الإسكندرية.
٣٢ ـ ماهية الأثر الذي في وجه القمر، لابن الهيثم (دراسة وتحقيق)/ مكتبة الإسكندرية.
٣٣ ـ مقالة في النقرس، للرازي (دراسة وتحقيق)/ مكتبة الإسكندرية.
٣٤ ـ مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية/ مكتبة الإسكندرية.
٣٥ ـ الشامل في الصناعة الطبية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). ثلاثون جزءًا. المجمع الثقافي/ أبو ظبي.
٣٦ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الألفية (تقديم وتحرير)/ مكتبة الإسكندرية.
٣٧ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الموقَّعة (تقديم وتحرير)/ مكتبة الإسكندرية.
٣٨ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الشارحة (تقديم وتحرير)/ مكتبة الإسكندرية.
٣٩ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المترجمة (تقديم وتحرير)/ مكتبة الإسكندرية.
٤٠ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المطوية (تقديم وتحرير)/ مكتبة الإسكندرية.

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يوسف زيدان: مفكر وروائي مصري مرموق، حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة وتاريخ العلوم، وصدر له حتى الآن أكثر من ستين كتابًا. نالت أعماله جوائز دولية عديدة: جائزة «عبد الحميد شومان» للعلماء العرب الشبان (الأردن)، جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (الكويت)، جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال الفقه الطبي وأصول فن تحقيق المخطوطات.. ونالت روايته الأشهر «عزازيل» عدة جوائز عالمية: جائزة البوكر العربية (٢٠٠٩)، وجائزة أنوبي (٢٠١٢)، وجائزة بانيبال (٢٠١٣). أصدرت له دار الشروق عددًا من المؤلفات والأعمال الإبداعية، منها رواياته: ظل الأفعى، عزازيل، النبطي، محال، جونتنامو، نور، فردقان.. وتتصدر رواياته قائمة الكتب الأعلى مبيعًا منذ صدورها وحتى الآن.

دار الشروق
www.shorouk.com

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.